الفصل الثانى

المدارس الزهدية

فى

صدر الإسلام

obeikandi.com

obeikandl.com

المدارس الزهدية فى صدر الإسلام

اتسعت تشعبات جامعة الزهد الأولى فى الأمصار والأقطار، وبدأت مدارس الزهد المنتسبة إليها تتخذ طريقها إلى القلوب لتُعمِل فيها بما يؤهلها للسلامة حتى تعود إلى ربها ، دون كدر يشوبها، أو مرض يؤرقها ويعكر صفوها، وسرعان ما رن صوتها فى ضمير الناس، وأخذت بأيديهم إلى النبع الروحى الصافى الذى لو نهلوا منه فلن يظمؤوا أبدًا، ولارتفعوا من دنيا الماديات إلى عوالم السعادة الأبدية، ولما أدرك السادة الأوائل قيمة تلك المدارس من فتح البصائر والأفئدة لاستقبال نفحات ربها، ومعرفة سبل اللذة الحقة؛ لذة النظر إلى وجه الله والسعادة بالقرب منه، والاستبشار بإشراق أنوار المعارف فى عين ذواتهم؛ بادروا وقد شدوا رحالهم إليها .

وراحت الأمصار المختلفة تظهر مدارسها، فالمدينة تصدرت الصف الأول بمدرستها، وراح كل قطر ومصر بعلمائه ليبدى فى مدرسته ما يعبر به عن آرائه ومناهجه وسلوكه وزهده ، كمكة والكوفة، والبصرة، والشام وغيرها من الأقطار. وسوف نلقى نظرة على هذه الأمصار تباعًا ،بادئين بالمدينة؛ لنستطلع أحوالها وأعمال القلوب فيها .

أولا : مدرسة المدينة المنورة

كان مجتمع المدينة المنورة مهيئًا لجوٍ من الحياة الروحية الراقية، فلا زالت المدينة مليئة بأنفاس الزهاد الأوائل، ولازال صوت الخلفاء الثلاثة الأول يدوِّى فى جنباتها وهزة الورع تعلوه .

وقد نأت المدينة المنورة بشيوخها بعيدًا عن الخوض فى الشقاق والاختلاف والمنازعات والتحولات السياسية ذات الأثر العميق، كما حجبت عن الأفكار والاتجاهات الغريبة المغالية كالتشيع وغيره .

وكان سيدنا عبد الله بن عمر أصدق تعبير عن الحركة العلمية والتربية الزهدية، فقد نأى عن الفتن وتفرغ للدراسة والبحث بعيدًا عن صليل السيوف ، وضجيج المعارك والفتن .

وصحبَهُ ﷺ التابعى الزاهد سعيد بن المسيب، وكان الاثنان من رجالات الزهد والعبادة فى المدينة بلا منازع .

١ ـ عبد الله بن عمر

يتسنم [١] ذروة الزهد :

اشتهرت المدينة المنورة بعبد الله بن عمر كأحد عبادها وزهادها المرموقين بين جيله من الصحابة والحق أن مكانته لم تكن مستمدة من حيث أبيه العظيم عمر بن الخطاب، ولكن من مقومات شخصيته التى تفرد بها بين غيره من الصحابة المقيمين بالمدينة، فإذا رآه إنسان أدرك أن به شيئًا من اتباعه آثار رسول الله ﷺ [٢] .

---

(١) يتسنم ذروة : يرتقى، وذروة الشىء : أعلاه .

(٢) أحمد بن حنبل، الزهد، ص ١٦٦، د . مصطفى حلمى، الزهاد الأوائل، ص ٧٦

وقد ولد ﷺ سنة ثلاث من المبعث النبوى، وهاجر وهو ابن عشر سنين ، ومات سنة أربعة وثمانين هجرية، وقد أسلم مع أبيه، ويقال : إنه لم يشهد بدرًا لصغر سنه [١] .

وقد اقتفى سيدنا عبد الله آثار رسول الله ﷺ فى كل شىء، وحافظ على ملامح الحياة الأولى التى تمناها المسلمون بعد وفاة النبى ﷺ، وقد وصفته أم المؤمنين السيدة عائشة بقولها : ما رأيت أحدًا أشبه بأصحاب رسول الله ﷺ الذين دفنوا فى النمار [٢] من عبد الله بن عمر [٣].

واغرورقت عينا ابن عمر بالدموع، ومار صدره بلوعة الشوق، واحتلت تفكيره صور الأحبة فراح يتقمص شخصياتهم، ويتلمس تصرفاتهم، فجاءه رجل وقال : يا بن عمر، أجعل لك جوارش [٤] ؟

قال : وأى شىء الجوارش ؟

قال : شىء إذا كظك [٥] الطعام فأصبت منه سهل عيشك.

فقال ابن عمر : ما شبعت من طعام منذ أربعة أشهر، وما ذاك إلا أن أكون له واجدًا ولكنى عهدت قومًا يشبعون مرة ويجوعون مرة [٦] .

ومن هذه الكلمات الموجزة تبدو معالم العبرة، وتظهر آثار التربية النبوية لا ابن عمر .

---

(١) الإمام ابن حجر العسقلانى، الإصابة فى تمييز الصحابة، ج ٦ ص ١٦٧ بتصرف .
(٢) جمع نمرة، وهى الشملة . تريد فقراء المهاجرين الذين ماتوا قبل اتساع الدنيا ، فدفنوا فى نمارهم وشملهم .
(٣) الإمام أحمد بن حنبل، الزهد، ص ١٩٤ .
(٤) الجوارش: دواء مركب يقوى المعدة ويهضم الطعام .
(٥) كظك : أى أثقلك .
(٦) الإمام أحمد بن حنبل، الزهد، ص ١٨٩ .

وَلِمَ لا ؟ ! وهو الذى أخذ الحكم على الدنيا من فِى رسول الله ﷺ ؟! حين أخذ بمنكبيه وقال : « **كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل** » حتى تكون فيه الحذر والخشية فقال :« **إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك** »[١].

بهذا جنح ابن عمر بالنفس إلى السلم، فإذا وصلت النفس إلى هذه الحال استغنت بها عن التطاول إلى الشهوات التى توجب اقتحام الحدود المسخوطة، والتقاعد عن الأمور المطلوبة المرغوبة، فإن فقرها إلى الشهوات هو الموجب لها التقاعد عن المرغوب المطلوب، وأيضًا فتقاعدها عن المطلوب بينهما، موجب لفقرها إلى الشهوات، فكل منهما موجب للآخر[٢].

إن ابن عمر لم يقعد عن المطلوب أبدًا، ولم يفتقر إلى شهواته ، إنه اشتهى يومًا حوتًا فصُنع له، فلما وضع بين يديه جاء سائل فقال : أعطوه الحوت .

فقالت امرأته : نعطيه درهمًا فهو أنفع له من هذا ، واقض أنت شهوتك منه .

فقال : شهوتى ما أريد[٣]،أى : شهوتى أن أعطى السائل الحوت .

بهذا الترفع اتسم منهج ابن عمر فى سلوكه، إنه كان لا يعجبه شىء من ماله إلا أخرج منه لله ﷻ ، وربما تصدق فى المجلس الواحد بثلاثين ألف درهم،

---

(١) رواه البخارى، فتح البارى، شرح صحيح البخارى، ج ١١ ص ٦٤١٦ .
(٢) الإمام ابن قيم الجوزية ، طريق الهجرتين وباب السعادتين، ص ٥٣١، دار الطباعة المحمدية، طبعة ثانية سنة ١٣٩٩هـ ـ سنة ١٩٧٩م .
(٣) ابن الجوزى، صفة الصفوة، ج ١ ص ١٨٣ .

وأعطاه مولاه ابن عامر مرتين ثلاثين ألفًا.

فقال ابن عمر : إنى أخاف أن تفتننى دراهم ابن عامر، يا بن عامر : اذهب فأنت حر، وكان يمكث الشهر لا يذوق فيه مزعة لحم، وأتته اثنان وعشرون ألف دينار فى مجلس فلم يقم حتى فرقها ﷺ .

وقد صدق سيدنا جابر بن عبد الله حين قال : ما رأينا أحدنا إلا قد مالت به الدنيا، أو مال بها، إلا عبد الله بن عمر [١] .

هذه حال ابن عمر مع الدنيا وشهواتها، وقد أقام منهج مدرسته على هذا الأساس ، زهد ومعرفة، وكثرت توجيهاته لطلابه فى هذا الطريق .

فعن مجاهد قال : كنت أمشى مع ابن عمر، فمر على خربة، فقال : قل يا خربة ما فعل أهلك؟ فقلت: يا خربة ما فعل أهلك ؟، قال ابن عمر : ذهبوا وبقيت أعمالهم [٢] .

إن ابن عمر جعل تلميذه (مجاهدًا) يردد خلفه بالموعظة حتى يعيش آثارها فى نفسه، وهكذا تتباعت العظات للطلاب من ابن عمر، يقول نافع مولى ابن عمر : ما قرأ ابن عمر هاتين الآيتين قط من آخر سورة البقرة إلا بكى : ﴿ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ﴾[البقرة] ثم يقول : إن هذا لإحصاء شديد .

من هذه الحال انبثقت مدرسة المدينة واتسعت دائرتها، وتوطدت فكرتها على الزهد والعلم.

---

(١) المصدر السابق، ص ١٨٣ بتصرف .

(٢) الإمام أحمد بن حنبل، الزهد، ص ١٩٢ .

ومن عظيم المنن أن رائدها (ابن عمر) كان من المكثرين فى الرواية عن النبى ﷺ ، وقد روى عن أبى بكر وعمر وعثمان وأبى ذر ، ومعاذ ، وعائشة ، وغيرهم من الصحابة رضوان الله عنهم أجمعين [١].

(١) ابن حجر العسقلانى، الإصابة فى تمييز الصحابة، ج ٦ ص ١٦٧ .

obeikandl.com

٢ ـ سعيد بن المسيب فى صحبة ابن عمر رضى الله عنهما :

ولد (ابن المسيب) لسنتين خلتا من خلافة عمر بن الخطاب، وكان يكنى بأبى محمد [١]، وكان ابن المسيب من كبار الرواد وأبرزهم فى مدرسة المدينة، ويُعد من كبار التابعين .

وقد ازدادت صلته بابن عمر واشتدت ملازمته له، وصحبته إياه، حتى حكى ابن المسيب الكثير من مآثر ابن عمر، فهو القائل عنه : لو كنت شاهدًا لرجل من أهل العلم أنه من أهل الجنة لشهدت لعبد الله بن عمر [٢].

وكان ابن المسيب صاحب عبادة، وجماعة، وعفة، وقناعة وكان كاسمه بالطاعات سعيدًا، وعن المعاصى والجهالات بعيدًا.

قال له بكر بن خنيس ـ وقد رأى أقوامًا يصلون ويتعبدون : يا أبا محمد ، ألا تتعبد مع هؤلاء القوم ؟ .

فقال ابن المسيب : يا بن أخى ، إنها ليست بعبادة .

فقال بكر : فما التعبد يا أبا محمد ؟

قال : التفكر فى أمر الله ، والورع عن محارم الله، وأداء فرائض الله تعالى [٣].

وكان ابن المسيب يحافظ على الفرائض، ملتزمًا بالشعائر والأذكار، وقد قال فى ذلك : ما أذن المؤذن ثلاثين سنة إلا وأنا فى المسجد [٤].

إن الإيمان بالله تعالى هو الذى كان يشده إلى عالم روحه حيث العبادة ،

---

(١) ابن الجوزى، صفة الصفوة، ج ١ ص ٢٩٠ .
(٢) صفة الصفوة، ج ١ ص ١٨٣ .
(٣، ٤) أبو نعيم الأصبهانى، حلية الأولياء، ج ٢ ص ١٦٤ .

ويعينه على مغالبة الكسل وأوصاف الجسد،ومقاومة الشهوات الصارخة فيه .

ويبدو أن ابن المسيب كان يحاول أن يسير على نهج صاحبه فى حياته الزهدية وموقفه من المال، وقيامه أكثر الليل، وقد دفعه ذلك إلى قوله يوم أن مات ابن عمر : مات ابن عمر يوم مات، وما من الدنيا أحد أحب أن ألقى الله بمثل عمله منه [١]. وقد دُعى ابن المسيب إلى نيف وثلاثين ألفًا ليأخذها، فقال : لا حاجة لى فيها [٢] .

وكان سعيد يعمل فى التجارة، ويلبس البسيط من الثياب ، ولا يتزين إلا فى العيدين، وقد رفض أخذ العطاء، ونظر إلى المال كوسيلة ليصل رحمه، ويؤدى منه الحقوق، ويعود منه على الأرملة والفقير والمسكين واليتيم والجار[٣] .وقد قال فى ذلك : لا خير فيمن لا يحب هذا المال يصل به رحمه، ويؤدى به أمانته، ويستغنى به عن خلق ربه [٤] .

فالمال لم يتعد عن كونه وسيلة وليس غاية تطمح إليها نفس ابن المسيب ؛ لأن موقفه من الدنيا ثابت لا يتغير، وقد أظهره حين قال : إن الدنيا نذلة وهى إلى كل نذل أميل، وأنذل منها من أخذها بغير حقها، وطلبها بغير وجهها، ووضعها فى غير سبيلها [٥]، وقد بلغ ورعه ﷺ إلى أنه لم يقبل من أحد شيئًا لا دينارًا ولا درهمًا ولا نفعًا، حتى الأشربة كانت تعرض عليه فلا يشرب منها[٦]، وكان ﷺ شديد الخوف من الله، على وعى بالحرمات ملتفتًا إلى روحه وإلى

(١) الحافظ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٩ ص ١٠٤ .
(٢) أبو نعيم الأصبهانى، حلية الأولياء، ج ٢ ص ١٦٦ .
(٣) الحافظ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٩ ص ١٠١ .
(٤) حلية الأولياء، ج ٢ ص ١٧٠ .
(٥) المصدر السابق، الصفحة نفسها .
(٦) أبو نعيم الأصبهانى، الحلية، ج ٢ ص ١٦٧ .

مطالبها التى تحفظ عليها إشراقها من الطاعات، وفى تعبير شديد اللهجة قال فى ذلك :

ما أكرمتِ العباد أنفسها بمثل طاعة الله ﷻ، ولا أهانت أنفسها بمثل معصية الله، وكفى بالمؤمن نصرة من الله أن يرى عدوه يعمل بمعصية الله .

وكان ابن المسيب يكثر من قوله : اللهم سلم سلم[1]،من شدة خوفه من الله، وغياب عقله فى المصير، وذهاب قلبه فى الرهبة والخشية .

وقد وضع ابن المسيب شخصية الإنسانية فى موضعها حين قال :

إنه ليس من شريف ولا عالم ولا ذى فضل إلا وفيه عيب ... من كان فضله أكثر من نقصه وهب نقصه لفضله [2] .

على هذا المسلك فى درب الزاهدين سار الإمام ابن المسيب، مهتمًا بالعلم والسلوك، فقد أسند عن عمر بن الخطاب ، وعثمان ، وعلى ، وسعد بن أبى وقاص وأبى بن كعب، وعمار بن ياسر، ومعاذ بن جبل ، وابن عمر، وأبى الدرداء، وأنس بن مالك، وصهيب ، وجابر بن عبد الله، وأبى سعيد الخدرى، وعائشة وأم سلمة ، وآخرين.

ومات ﷺ بالمدينة المنورة وهو ابن أربع وثمانين سنة [3] ، ﷺ وجمعنا وإياه فى صحبة الحبيب ﷺ يوم القيامة .

---

(١) نفس التخريج السابق .

(٢ ،٣) الإمام ابن الجوزى، صفة الصفوة، ج ١ ص ٢٩١ .

ثانيًا : مدرسة الزهد بمكة المكرمة

سارت مدرسة مكة الزهدية على درب السابقين لتجمع بين العلم والحياة الروحية، وبين علم الظاهر وعلم البواطن والقلوب، امتدادً واستقاءً من الجامعة الأولى بقيادة رسول الله ﷺ، وهذا الاستقاء هو ميزان كل مدرسة، وميزان كل شخصية.

وكما قال الإمام أحمد بن محيى الجزائرى :

واعلم أن ميزان الرجال عندنا هو المتابعة لسيد الوجود ﷺ قولًا وعملًا، والتخلق بأخلاقه الكريمة التى هى عنوان كمال الإنسان وشرفه وعلى عراقة أصله، فإذا طاب أصل المرء طابت فروعه ، وإذا تنور القلب حسن جنده وجموعه، والأخلاق التى كان مشتملة عليها الذات الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام هى الدين والعلم والصبر والحلم والشكر والعدل والزهد ... وحسن الأدب مع الله [1] .

ومدرسة مكة كانت رمزًا للاقتداء برسول الله ﷺ، وكان من أهم رجالاتها :

١ ـ أبو الحجاج مجاهد بن جبر المكى القرشى المخزومى [2] :

وهو مولى السائب بن أبى السائب المخزومى، كان من أفقه وأزهد التابعين، عاش فى صحبة عبد الله بن عمر ﷺ ؛ لأنه رأى فيه مشابهة بأبيه عمر فى

(١) العلامة المحقق أحمد بن محيى الدين الحسنى الجزائرى، نثر الدر وبسطه فى بيان كون العلم نقطة، بتحقيق : أحمد فريد المزيدى، ص ٤٥، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة أولى سنة ١٤٢٥هـ ـ سنة ٢٠٠٤م

(٢) الإمام ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٥ ص ١٧٣. وانظر : تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلانى، ج ٧ ص ٢١٧ ، وتهذيب الكمال، للحافظ المزى، ص ٩٤٠ .

الفضل، يقول : صحبت ابن عمر وأنا أريد أن أخدمه فكان يخدمنى[١].

وكان أيضًا من خواص أصحاب ابن عباس، وكان أعلم أهل زمانه بالتفسير، حتى قيل : إنه لم يكن أحد يريد بالعلم وجه الله تعالى إلا مجاهد وطاوُس.

وقال مجاهد : أخذ ابن عمر بركابى، وقال : وددت أن ابنى سالمًا، وغلامى نافعًا يحفظان حفظك[٢].

وقد أسند ﷺ فى الحديث عن ابن عباس وابن عمر وجابر بن عبد الله، وأبى سعيد الخدرى، وأبى هريرة، ورافع بن خديج ، وحدث عن عائشة إلا أن حديثه عنها مرسل ؛ لأنه لم يسمع منها، وحدث عنه من أعلام التابعين : عطاء وطاوُس وعكرمةَ[٣].

وعلى عين العلم بالدراية والتلقى فى الرواية قام الزهد عند مجاهد، وقد اتخذ ﷺ منهجًا ترغيبيًا فى الوصول إلى قلب السالك فقال :

إن العبد إذا أقبل على الله ﷻ بقلبه أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه[٤].

وكان مجاهد من أهل البصيرة فى التأويل، فهو صاحب لمسة نورانية وضاءة،ومن تأويلاته المشهورة فى قول الله تعالى:﴿ وَقُومُوا لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ ﴾ [البقرة] قال : ومعنى (قانتين) : من القنوت : أى : الركوع والخشوع وغض البصر، وخفض الجناح من رهبة الله[٥].

---

(١)ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٩ ص ٢٢٨.
(٢)المصدر نفسه ، ص ٢٢٦.
(٣)الإمام ابن الجوزى، صفة الصفوة، ج١ ص ٣٤٩.
(٤)المصدر السابق، ص ٣٤٨.
(٥)الإمام البغوى، شرح السنة، بتحقيق : شعيب الأرناؤوط وزهير الشاويش، ج ٣ ص ٣٦٢، طبعة المكتب الإسلامى، بيروت، سنة ١٤٠٠هـ.

وقد اتسم تأويله بالجمع والإحاطة بالمعانى.

ومن تأويلاته : ما جاء عنه فى قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحجرات] قال : من لم يتب إذا أصبح وإذا أمسى فهو من الظالمين، وقال : ما من يوم ينقضى من الدنيا إلا قال ذلك اليوم : الحمد لله الذى أراحنى من الدنيا وأهلها، ثم يطوى عليه فيختم إلى يوم القيامة حتى يكون الله ﷻ هو الذى يفض خاتمه [١].

وقد أمعن مجاهد النظر فى تأويل قوله تعالى : ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [يونس] ، فقال : معناه : لا تهلكنا بأيدى أعدائنا، ولا تعذبنا بعذاب من عندك، فيقول أعداؤنا : لو كانوا على حق لم يُسلَّط عليهم فيفتنوا[٢] .

وقد أوتى ﷺ حسن التأويل والعرض من صحبته لإمام المفسرين عبد الله ابن عباس زمنًا طويلًا ، حتى إنه عُرض عليه القرآن ثلاثين عرضة، ويقول : كنت أفقه كل آية أسأله فيم أنزلت ؟، وفيم كانت ؟ [٣]، وعليه فقد تثبت الإمام مجاهد فى الفقه والتأويل .

ومن توجيهاته ﷺ التى اخترق بها أعماق البصائر، وكشف بها للأفئدة عما يضنه الشيطان لها من وساوس: ما حكاه عن إبليس لعنه الله حيث قال : ما أعجزنى بنو آدم فلن يعجزونى فى ثلاث :

إذا سكر أحدهم أخذنا بخزامته [٤]، فقدناه حيث شئنا، وعمل لنا بما أحببنا،

(١) الحافظ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٩ ص ٢٤١ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبى، ج ٨ ص ٢٣٧ .
(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٩ ص ٢٢٥ .
(٤) الخزامة : هى جانب الأنف، وهى الشعر يوضع فى ثقب أنف الإبل يُشد منها، المعجم الوجيز، ص ١٩٤ .

وإذا غضب قال بما لا يعلم، وعمل بما يندم .

ونُبخِّلُهُ بما فى يديه ونُمَنِّيهِ بما لا يقدر عليه [١] .

ومن مواعظه ﷺ : قوله فى باب الاعتبار واللحوق دائمًا بباب الأوبة : ما من مرض يمرضه العبد إلا ورسول ملك الموت عنده، حتى إذا كان آخر مرض يمرضه العبد أتاه ملك الموت فيقول : أتاك رسول بعد رسول فلم تعبأ به، وقد أتاك رسول يقطع أثرك من الدنيا .

ومن كلامه فى باب الموعظة أيضًا : يؤمر بالعبد إلى النار يوم القيامة، فيقول : ما كان هذا ظنى، فيقول : ما كان ظنك ؟ فيقول : أن تغفر لى، فيقول : خلو سبيله[٢].

وفى باب طهارة الأوانى (القلوب) لتستقبل المعانى، ترك الإمام مجاهد أثرًا عميقًا لا يزول ما بقى فى الأرض حياة، أثرًا يأخذ بالمواجد إلى المثل العليا، ويشد زمام القلب ليمسك على سلامته ووفائه بعيدًا عن تسلل العلل والأمراض إليه، وله قولة عظيمة فى هذا الباب يصف فيها حال القلب، حين قال :

القلب هكذا ـ وبسط كفه ـ فإذا أذنب الرجل ذنبًا، قال : هكذا، وعقد واحدًا، ثم إذا أذنب وعقد اثنين ثم ثلاثًا ثم أربعًا، ثم رد الإبهام على الأصابع فى الذنب الخامس ثم يطبع على قلبه [٣] .

وقد أنصت طلاب مجاهد إليه وهم يهرعون، ويعيرون سمعهم لحلل الكلام المصفى الذى يدوى صدى صوته فى ضمائرهم، حتى فاضت أفئدتهم

(١) الإمام الغزالى، إحياء علوم الدين، ج ٣ ص ١٧٧ .
(٢، ٣) ابن الجوزى، صفة الصفوة، ج ١ ص ٣٤٩ .

رقة، وبللت العبرات عيونهم، إنهم أقبلوا عليه يتلهفون لأنوار اليقين التى تفتح على قلوبهم نافذة من الهدى يبصرهم فى سيرهم، حتى يعودوا إلى ربهم آمنين .

ومن جليل كلامه ما ورد عنه :

يؤتى يوم القيامة بثلاثة نفر، بالغنى ،والمريض، والعبد المملوك.

قال : فيقول الله ﷻ للغنى : ما شغلك عن عبادتى التى خلقتك لها ؟ فيقول : يا رب أكثرت لى من المال فطغيت، فيؤتى بسليمان عليه السلام فى ملكه، فيقول لذا : أنت أكثر مالًا وأشد شغلًا أم هذا ؟ قال : فيقول : بل هذا يا رب، فيقول الله له : فإن هذا لم يمنعه ما أوتى من الملك والمال والشغل عن عبادتى .

قال : ويؤتى بالمريض، فيقول : ما منعك عن عبادتى.

التى خلقتك لها ؟ فيقول : يارب ، شغلنى عن هذا مرض جسدى، فيؤتى بأيوب عليه السلام فى ضره وبلائه، فيقول له : أأنت كنت أشد ضرًا ومرضًا أم هذا ؟ فيقول : بل هذا، فيقول : إن هذا لم يشغله ضره ومرضه عن عبادتى .

ثم يؤتى بالمملوك، فيقول الله له : ما منعك عن عبادتى التى خلقتك لها ؟ فيقول : رب ، فضلت علىَّ أربابًا فملكونى وشغلونى عن عبادتك، فيؤتى بيوسف عليه السلام فى رقة عبوديته، فيقول الله له : أأنت كنت أشد فى رقتك وعبوديتك أم هذا ؟ فيقول : بل هذا يا رب، فيقول الله : فإن هذا لم يشغله ما كان فيه من الرق عن عبادتى [1] .

بهذه الكلمات المعبرة ملك الإمام مجاهد أعنة القلوب، وجعلها تطير

(١) الإمام ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٩ ص ٢٤٢ .

بأجنحة الخشية إلى أرض الإيمان المباركة، ومزج الدموع بالعبرات، حتى خفقت الأفئدة رهبة، وخشع سلطانها رغبة، وتوحدت الوجهة إلى غاية واحدة، وهى العبودية لله رب العالمين .

وفى لحظة تأخذ الألباب للأسى، والقلوب للحزن فاضت روح الإمام إلى بارئها مطمئنة والسكون يعلوها، والملائكة تحوم حولها وتزفها إلى عليين، حيث مات ﷺ وهو ساجد لله رب العالمين سنة مائة، وقيل : إحدى، وقيل : ثنتين، وقيل : ثلاث ومائة، وقيل : أربع ومائة، وقد جاوز الثمانين، والله أعلم[1] .

رحم الله الفقيه، صاحب المقامات العلية، والفتوحات السنية، قائد ركب الزاهدين على عصره، سيدى الإمام مجاهد بن جبير .

(١)المصدر السابق، ص ٢٣٩ ، وابن الجوزى، فى صفة الصفوة، ج ١ ص ٣٤٩ .

obeikandl.com

٢ ـ أبو محمد عطاء بن أبى رباح الفهرى

أحد كبار التابعين الثقات الرفعاء، يقال : إنه أدرك مائتى صحابى، وكان ثقة فقيها عالمًا، كثير الحديث، وقيل : ما بقى أحد فى زمانه أعلم بالمناسك منه .

وكان ينادى منادى بنى أمية فى أيام منى : لا يفتى الناس فى الحج إلا عطاء ابن أبى رباح [١] .

وقيل : إنه حج سبعين حجة ، وعاش مائة سنة .

كان إذا حدثه أحد بحديث وهو يعلم، يصغى إليه وكأنه ما سمعه قط ؛ لئلا يخجل الرجل.

وكان يقرأ فى قيامه فى صلاة الليل المائتى آية أو أكثر، نشأ بمكة وهو مولى آل أبى ميسرة الفهرى [٢] .

أسند عن كثير من الصحابة منهم ابن عمر، وابن عمرو، وعبد الله بن الزبير، وأبو هريرة، وزيد بن خالد الجهنى، وسمع من ابن عباس التفسير وغيره، وروى عنه من التابعين عدة منهم الزهرى، وعمرو بن دينار، وأبو الزبير، وقتادة، ومالك بن دينار وغيرهم .

وكان عطاء ـ رحمه الله ـ يقول : من جلس مجلس ذكر كفّر الله عنه بذلك المجلس عشر مجالس من مجالس الباطل.

فقيل له : وما مجلس الذكر ؟

---

(١) الحافظ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٩ ص ٣٢٩ .

(٢) الإمام الشعرانى، الطبقات الكبرى، ج ١ ص ٣٤، طبعة محمد على صبيح وأولاده .

قال : مجالس الحلال والحرام، كيف نصلى ؟ كيف نصوم ؟ كيف تنكح وتطلق وتبيع وتشترى ؟

وروى عن غير واحد أن حلقة الدرس فى المسجد الحرام كانت لابن عباس، فلما مات ابن عباس كانت لعطاء بن أبى رباح [١] .

وكان مجلس عطاء مليئًا بالطمأنينة والراحة التى تنساب إلى ضمائر الطلاب وتستقر فى مواجدهم، وعرف لعطاء علمه وغزارته الذى ذاع فى الآفاق، وحسن خلقه وطهارة قلبه الذى يتسع لكل تلاميذه ولا يتصف بالصلف ولا بالغرور، بل امتلأت جوانحه بالتواضع والرقة وكان يحث طلابه بمتابعة بعضهم وتفقد أخبار بعض، وقد حثهم على ذلك وقد اجتمعوا متحلقين فى الدرس قائلًا :

تفقدوا إخوانكم بعد ثلاث، فإن كانوا مرضى فعودوهم، أو مشاغيل فأعينوهم، أو كانوا نَسُوا فذكروهم [٢] .

وقد بدا عطاء بن أبى رباح روحًا جديدًا يؤذن بتجديد شباب العلم لديه، ويرفق فيهم الحلم مع العلم، وتوطيده فى نفوسهم ليكون لهم ظهيرًا يؤيدهم، ويقف معهم لتكتمل لديهم مسيرة التحصيل، وقد تابعهم فى ذلك بحرص، يقول ـ رحمه الله ـ : ما أوى شىء إلى شىء أزين من حلم إلى علم [٣] .

كما تابع ﷺ فيهم حفظ اللسان ، وحثهم على الصمت، وانقشع فى ذلك من قلبه كل اهتمام، فجلس معهم والموعظة تطل من عينيه ، وهو يقول فى هزة

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٩ ص ٣٣٠ .
(٢) الإمام أبو حامد الغزالى، إحياء علوم الدين، ج ٢ ص ١٧٦ .
(٣) الإمام الدارمى، سنن الدارمى، بتحقيق : فؤاد أحمد أزمرلى وخالد السبع العلمى، ج ١ ص ١٥٢ برقم ٥٧٨، طبعة دار الريان للتراث، سنة ١٤٠٧هـ .

صوت : إن من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام، وكانوا يَعُدُّون فضول الكلام ما عدا كتاب الله أن تقرأه ، أو تأمرَ بمعروف، أو تنهى عن منكر، أو تنطق بحاجتك فى معيشتك التى لابد لك منها أتنكرون : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝ ﴾ [الانفطار] ، ﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝ ﴾ [ق] .أما يستحيى أحدكم أن لو نُشرت عليه صحيفته التى أملى صدْره نهاره، كان أكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولا دنياه [١] .

وراح عطاء يعظ أمير المؤمنين، فموعظته لم تقف عن حد مجلسه، فقد أخذته صبوة ذات مرة، وَهَمَّ والشجاعة تلمؤهُ، ودخل على أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان وهو جالس على سريره، وحواليه الأشراف من كل بطن، وذلك بمكة المكرمة فى وقت حَجِّه فى خلافته، فلما نظر إليه قام إليه وأجلسه معه على السرير، وقعد بين يديه، وقال له : يا أبا محمد ، ما حاجتك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، اتق الله فى حرم الله وحرم رسوله ﷺ ، فتعاهده بالعمارة، واتق الله فى أولاد المهاجرين والأنصار، فإنك بهم جلست هذا المجلس، واتق الله فى أهل الثغور فإنهم حصن المسلمين، وتفقدْ أمور المسلمين، فإنك وحدك المسؤول عنهم، واتق الله فيمن على بابك فلا تغفل عنهم ولا تغلق بابك دونهم، فقال : يا أبا محمد ، إنما سألتنا حاجة لغيرك وقد قضيناها، فما حاجتك؟ فقال : ما لى إلى مخلوق حاجة، ثم خرج، فقال عبد الملك : هذا والله الشرف، هذا والله الشرف [٢] .

---

(١) الإمام أبو بكر عبد الله بن أبى الدنيا، الصمت وحفظ اللسان، ص ٢٤٠ ـ ٢٤١، تحقيق : محمد أحمد عاشور، طبعة دار الاعتصام، طبعة ثانية، سنة ١٤٠٨ هـ ـ سنة ١٩٨٨م .

(٢) ابن النحاس، تنبيه الغافلين، ص ٤٥ ـ ٤٦، بتحقيق :نصر السمرقندى، دار الشروق، جدة سنة ١٤٠٠ هـ .

وكان ﷺ حريصًا على التودد لقرابته، حريصًا على الحث والنصح لطلابه على ذلك، بل وحثهم على العطاء والسعة عليهم، ومن شدة حرصه على تحقيق هذه الصلة بالعطاء للأثرياء لم يجعل لها ضوابط ولا معايير،قال: لدرهم أضعه فى قرابَتى أحب إلىَّ من ألفٍ أضعها فى فاقة.

قال له قائل : يا أبا محمد،وإن كان قرابتى مثلى فى الغنى،قال : وإن كان أغنى منك [١] .

وقد أظهر عطاء نورانية بصيرته، وتدفق إلهاماته حين راح يفسر آى القرآن الكريم، فله لمسة عذبة فى تفسير قوله تعالى : ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾[النور :٢٦] ، قال : والطيبات من القول للطيبين من الناس، ألا ترى أنك تسمع بالكلمة الخبيثة من الرجل الصالح، فتقول : غفر الله لفلان ما هذا من خلقه، ولا من شِيَمِهِ، ولا مما يقول، قال تعالى : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ [النور :٢٦] أى : لا يكون ذلك من شيمهم، ولا من أخلاقهم، ولكن الزلل قد يكون [٢] .

وكان من صفات عطاء الزهد فى عيشه وفى لباسه، فقد أخبر الإمام أحمد بن حنبل بأن عطاء ما رُؤى قط وعليه قميص، ولا رؤى قط وعليه ثوب يساوى خمسة دراهم [٣] .

ومع زهده ﷺ لم يحجب نفسه عن مشكلات مجتمعه، فقد عايش الفترة الحرجة فى التاريخ العقائدى والسياسى للمسلمين على أثر مقتل عثمان ، فلم

(١) أبو بكر عبد الله بن أبى الدنيا، مكارم الأخلاق، ص ٦٢، بتحقيق : ج . أ . بالمى، ألمانيا، ببادن بادن، سنة ١٩٧٣م .

(٢) الإمام جلال الدين السيوطى، الدر المنثور فى التفسير بالمأثور، ج ٦ ص ١٦٧، طبعة دار الفكر، طبعة أولى سنة ١٤٠٣هـ .

(٣) الحافظ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٩ ص ٣٣١ .

يعتكف بعيدًا عن الأحداث، ولما تفجرت المشاكل التى أثارها الشيعة والخوارج والمعتزلة بالكوفة ، أدلى برأيه فيما دار من مسائل [١] .

وظل ابن أبى رباح فى ميدان العلم والزهد، يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة إلى أن توفى بمكة سنة خمس عشرة ومائة [٢] ـ رحمه الله ـ وطيب ثراه، وجمعنا وإياه فى زمرة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

(١) د . مصطفى حلمي، الزهاد الأوائل، ص ٨١ بتصرف .
(٢) الإمام الشعرانى، الطبقات الكبرى، ج ١ ص ٣٤ .

obeikandl.com

ثالثا : مدرسة الكوفة الزهدية

من المعروف أن أهل الكوفة اتسموا بالاجتهاد فى مسائل القضاء والإمارة[١] لهذا يقال : (فقه كوفى)[٢] .

ومع وجود الشيعة بالكوفة، وكثرة تكذيبهم بالوضع فى الحديث على رسول الله ﷺ، إلا أن ذلك لا ينفى وجود الثقات الذين لا ريب فى صدقهم أمثال أصحاب عبد الله بن مسعود[٣] .

وقد برز شيوخ الزهد بالكوفة، وكان على رأسهم أويس القرنى، وسعيد بن جبير، ومسروق بن الأجدع ، وسفيان الثورى ، وفيما يلى نطوف حول هؤلاء الرجال .

١ ـ أويس القرنى

قيل : هوأويس بن عامر بن جَزْء بن مالك بن عمرو بن مسعدة بن عمرو ابن سعد بن عصوان بن قرن بن رومان بن ناجية بن مراد المرادى ثم القرنى، الزاهد المشهور، من كبار التابعين[٤].

وقد بشر النبى ﷺ به وبصلاحه وتقواه، ووصفه للصحابة .

فعن أسير بن جابر قال : كان عمر بن الخطاب إذا أتت عليه أمداد أهل اليمن سألهم : هل فيكم أويس بن عامر ؟ حتى أتى على أويس، فقال : أنت أويس بن عامر ؟

---

(١) الإمام ابن تيمية، الصوفية والفقراء، ص ٢١ .
(٢) المصدر السابق، ص ٩ .
(٣) الإمام ابن تيمية، مذهب أهل المدينة، ص ٣٢ . د . مصطفى حلمى، الزهاد الأوائل، ص ٨٤ .
(٤) الشيخ إبراهيم الدسوقى سيد منصور، الصفى الخفى سيدى أويس القرنى، ص ٢٣، دار جوامع الكلم .

قال : نعم .

قال : من مراد ثم قرن ؟

قال : نعم.

قال : كان بك برص فبرأت منه إلا موضع درهم ؟

قال : نعم .

قال : لك والدة ؟

قال : نعم.

قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**يأتى عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن من مراد ثم من قرن كان به برص فبرأ منه إلا موضع درهم له والدة هو بها بار، لو أقسم على الله ﷻ لأبره، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل**»، فاستغفر لى، فاستغفر له .

فقال عمر ﷺ : أين تريد ؟

قال : الكوفة .

فقال : ألا أكتب لك إلى عاملها فيستوصى بك.

قال : لأن أكون فى غابر الناس أحب إلىَّ.

قال : فلما كان من العام المقبل حج رجل من أشرافهم، فوافق عمر فسأله عن أويس : كيف تركته ؟

قال : تركته رث الهيئة، قليل المتاع.

فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « **يأتى عليك أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن من مراد، ثم من قرن، كان به برص فبرأ إلا موضع درهم، له والدة هو بها بر، لو أقسم على الله لأبره، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل** » .

فلما قدم الكوفة أتى أويسًا فقال : استغفر لى.

فقال : أنت أحدث عهدًا بسفر صالح، فاستغفر لى، لقيت عمر ؟

قال : نعم، فاستغفر له ، ففطن له الناس فانطلق على وجهه.

قال أسير وكسوته بردًا ، فكان إذا رآه إنسان عليه، قال : من أين لأويس هذا البرد [1] .

وكان سيدى أويس زاهدًا، فقد أخذ على نفسه بالتقشف بشدة لا يحتملها إلا مؤمن عمر قلبه بحقيقة راسية كالجبال، لا تزعزعها عواصف الفتن الهوجاء لنفوذ سر الله إليها، فقد طهر ضميره من الأدران، وقد صدق علقمة بن مرثد حين حكى عن زهد أويس:

انتهي الزهد إلى ثمانية ، منهم أويس القرنى ، ظن أهله أنه مجنون فبنوا له بيتًا على باب دارهم، فكانت تأتى عليه السنة والسنون لا يرون له وجهًا، وكان طعامه مما يلتقط من النوى، فإذا أمسى باعه لإفطاره، فإن أصاب حشفة حبسها لإفطاره .

وقد بدا خوف أويس من المصير، حين أخذه الوجل، وانقشعت من قلبه الرهبة تتدفق حتى كست أحواله، لما مر عليه رجل من مراد فقال : كيف أصبحت ؟

(١) انفرد بإخراج هذا الحديث الإمام مسلم، انظر : صفة الصفوة، لابن الجوزى، ج ٢ ص ٥١٧ ـ ٥١٨ .

قال : أصبحت أحمد الله ﷻ.

قال : وكيف الزمان عليك ؟

قال أويس : كيف الزمان على رجل إن أصبح ظن أنه لا يُمسى، وإن أمسى ظن أنه لا يصبح ، فمبشر بالجنة، أو مبشر بالنار، يا أخا مراد : إن الموت وذكره لم يترك لمؤمن فرجًا، وإن علمه بحقوق الله لم يترك له فضة ولا ذهبًا، وإن قيامه لله بالحق لم يترك له صديقًا [١] .

إنه كان يقسم الليالى بين الركوع والسجود، فكان إذا أمسى يقول : هذه ليلة الركوع، فيركع حتى يصبح، وكان يقول إذا أمسى :هذه ليلة السجود، فيسجد حتى يصبح .

وكان إذا أمسى تصدق بما فى بيته من الفضل من الطعام والثياب ثم يقول : اللهم من مات جوعًا فلا تؤاخذنى به، ومن مات عريانًا فلا تؤاخذنى به [٢] .

وقد صدق الإمام الشاطبى حين أطلق على أويس: سيد العباد بعد الصحابة[٣]، ويصفه الإمام الذهبى بأنه : القدوة الزاهد سيد العابدين فى زمانه[٤].

وجعله الإمام أحمد مضرب مثله فى الزهد والورع، فقال : لا زهد إلا زهد أويس ، بلغ به العرى حتى قعد فى قوصرة [٥]. إنه كان يتصدق بثيابه حتى يجلس عريانًا لا يجد ما يروح فيه إلى الجمعة [٦] .

---

(١) العلامة الشيخ إبراهيم الدسوقى، الصفى الخفى سيدى أويس القرنى، ص : ١٨٢ .
(٢) الإمام أبو نعيم الأصبهانى ، حلية الأولياء، ج ٢ ص ٨٧ .
(٣) الإمام الشاطبى، الاعتصام، ج ٢ ص ٢١ .
(٤) الإمام الذهبى، سير أعلام النبلاء، ج ٤ ص ١٣٥ .
(٥) القوصرة وعاء من قصب للتمر : وهى بالتشديد ، والبعض تخفيفها انظر : تهذيب اللغة . (قصر) . وقال ابن دريد : لا أصل لها فى العربية : وأحسبها دخيلاً .
(٦) الإمام أحمد بن حنبل، الزهد، ص ٣٤٧ .

وهكذا عاش أويس مستغرقًا فى العبادة والزهد ، فهو فى نهاره دائم الصلاة ، وفى ليله قائم حتى يصبح، يقول : بلغنى أن لله عبادًا سجودًا أبدًا [١].

وربما يقصد بذلك التشبه بالملائكة، ويقوى ذلك ما أُثر عنه : لأعبدن الله فى الأرض كما تعبده الملائكة فى السماء [٢] .

وهذا لا يعد مخالفة على حد قول الشاطبى ؛ لأن أويسًا كان يقتدى برسول الله ﷺ الذى كان يقوم الليل حتى تتورم قدماه، ولم يكن يمنعه ذلك من الجهاد، وهكذا فعل أويس القرنى، فإن الاختلاف فى تاريخ وفاته يرجع إلى تعدد الأخبار فى سبب موته، فمن المحتمل أنه قتل فى موقعة صفين، أو بعد خروجه غازيًا إلى ثغر أرمينية حيث مرض ومات ، ويرجح ابن عساكر أنه قتل بصفين [٣] .

وكان سيدى أويس يحب العزلة والخفاء؛ لأنه لا يحب أن يكون هناك شىء يعزله عن الله أو يبعده عنه، فكان سيدنا عمر بن الخطاب يسأل عنه وفد أهل الكوفة إذا قدموا عليه : تعرفون أويسًا القرنى ؟ فيقولون : لا، مع أنه مقيم إقامة كاملة فى الكوفة، لكنه كان يفضل ألا يعرفه أحد [٤] .

هكذا عاش أويس خفيًا تقيًا، يملؤه الورع، ويتوقل معارج الزهد، حتى ملك أعنة الأفئدة بحبه، وتمنت العيون رؤيته، وإن التقت القلوب بقلبه .

رحم الله سيدى أويسًا، وعلمنا من زهده ما نقود به الدنيا، دون أن تقودنا ، وشملنا فى كنف من استغفر لهم ... آمين .

---

(١) الإمام الشاطبى، الاعتصام، ج ٢ ص ٣٧ .
(٢، ٣) ابن عساكر، التاريخ الكبير ، ج ٣ ص ١٧٤ .
(٤) الشيخ . إبراهيم الدسوقى، الصفىّ الخفى سيدى أويس القرنى، ص ٢٦٣ .

٢ ـ أبو عبد الله سعيد بن جبير

قدوة العباد، وعلم الأصفياء من الزهاد، سعيد بن جبير ابن الحارثية من بنى أسد بن خزيمة، كان إذا قام إلى الصلاة كأنه وتد، وبكى بالليل حتى عمش،واعتاد ختم القرآن كل ليلتين،وكان شديد الخشية لله، ومن كلامه فيها : إن الخشية : أن تخشى الله حتى تحول خشيته بينك وبين معصيتك، فتلك الخشية، والذكر طاعة الله، فمن أطاع الله فقد ذكره، ومن لم يطعه فليس بذاكر، وإن كثر التسبيح وتلاوة القرآن [١] .

ولابن جبير باع طويل فى الحذاقة والحنكة، مفرط العطاء فى الحكمة، كانت كلماته فى المعانى قليلة جامعة، فمثلًا لما سئل عن معنى التوكل، قال : التوكل على الله ﷻ جماع الإيمان [٢].

وقد أصاب بذلك قلب حقيقة التوكل، فقمة التوكل تبدو عند تجريد القلب عن كل شىء سوى الله وإخلائه من علائق المشاركة الخفية لغير الله تعالى عن قصد أى شىء من الأشياء .

وكان ابن جبير شديد الخوف ، حتى إنه كان يصلى الفجر ويردد قول الله تعالى : ﴿ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [يس] اثنتين وعشرين مرة .

وسئل يومًا عن أعبد الناس، فقال : رجل اجترح من الذنوب، فكلما ذكر ذنوبه احتقر عمله.

---

(١) الإمام ابن الجوزى، صفة الصفوة، ج ٢ ص ٥٣٦ بتصرف .

(٢) هناد بن السرى، الزهد، ج ١ ص ٣٠٤، بتحقيق : عبد الرحمن بن عبد الجبار الفريوائى، طبعة دار الخلفاء للكتاب الإسلامى، الكويت، سنة ١٤٠٦ هـ .

وكان ـ رحمه الله ـ كثيرًا ما يقرأ فى صلاته قول الله تعالى : ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة :٢٨١] ، ثم يرددها بضعًا وعشرين مرة [١] .

على هذا الخط من الخوف والمحاسبة وطدت نفس ابن جبير ، وكانت حلاوة الإيمان تغطى كل أحواله، فكان يثبت على إيمانه فى إصرار تحطمت عليه كل أدوات الاضطهاد التى عاشها أيام الحجاج بن يوسف الثقفى ، والذى انتهى بقتله ﷺ .

وكان ابن جبير تلميذًا لعبد الله بن عباس رضى الله عنهما ، وقد عاش مجاهدًا بالعلم والعمل، ووقف فى وجه الحجاج وخرج عليه ، وتابعه الحجاج حتى أخذه خالد بن عبد الله القسرى فى مكة وبعث به إلى الحجاج، ولما أخذه الحجاج، قال سعيد بن جبير : ما أرانى إلا مقتولًا، ودعا بابنه وجعل ابنه يبكى، فقال : ما يبكيك ؟ ما بقاء أبيك بعد سبع وخمسين سنة ؟!

ولما أتى الحجاج بسعيد بن جبير قال : أنت الشقى ابن كسير ـ تهكمًا باسمه سعيد بن جبير .

قال : بل أنا سعيد بن جبير.

قال : بل أنت الشقى ابن كسير.

قال : كانت أمى أعرف باسمى منك.

قال : ما تقول فى محمد ؟ قال : تعنى النبى ﷺ؟

قال : نعم .

(١) الإمام ابن الجوزى، صفة الصفوة، ج ٢ ص ٥٣٦ بتصرف .

قال : سيد ولد آدم، المصطفى، خير من بقى وخير من مضى.

قال : فما تقول فى أبى بكر الصديق ؟ قال : الصديق خليفة رسول الله ﷺ، مضى حميدًا وعاش سعيدًا، ومضى على منهاج نبيه ﷺ لم يغير ولم يبدل.

قال: فما تقول فى عمر ؟ قال : عمر الفاروق خيرة الله وخيرة رسوله، مضى حميدًا على منهاج صاحبيه، لم يغير ولم يبدل ؟

قال : فما تقول فى عثمان ؟

قال : المقتول ظلمًا، المجهز جيش العسرة ، الحافر بئر رومة، المشترى بيته فى الجنة، صهر رسول الله ﷺ على ابنتيه، زوجه النبى ﷺ بوحى من السماء.

قال : فما تقول فى على ؟

قال : ابن عم رسول الله ﷺ وأول من أسلم، زوج فاطمة وأبو الحسن والحسين.

قال : فما تقول فِىَّ ؟

قال : أنت أعلم بنفسك.

قال : بث بعلمك .

قال: إذا نسؤك ولا نسرك .

قال : بث بعلمك.

قال : أعفنى.

قال : لا عفا الله عنى إن أعفيتك .

قال : إنى لأعلم أنك مخالف لكتاب الله ، ترى من نفسك أمورًا تريد بها الهيبة وهى التى تقحمك الهلاك، وسترد غدًا فتعلم.

فقال : أما والله لأقتلنك قتلة لم أقتلها أحدًا قبلك ولا أقتلها أحدًا بعدك .

قال : إذًا تفسد على دنياى وأفسد عليك آخرتك.

قال : يا غلام ، السيف والنطع.

فلما ولى ضحك، قال : قد بلغنى أنك لم تضحك.

قال : قد كان ذلك.

قال : فما أضحك عند القتل ؟

قال : من جرأتك على الله ﷻ ، ومن حلم الله عليك.

قال : يا غلام ، اقتله، فاستقبل القبلة، فقال : وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفًا مسلما وما أنا من المشركين .

فصرف وجهه عن القبلة، فقال : أينما تولوا فثم وجه الله.

قال : اضرب به الأرض، قال : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ [طه] ، فذبح من قفاه.

فبلغ ذلك الحسن بن أبى الحسن البصرى، فقال : اللهم يا قاصر الجبابرة اقصم الحجاج، فما بقى إلا ثلاثًا حتى وقع فى جوفه الدود فمات فى سنة أربع وتسعين، وقيل : خمس وتسعين، عن عمر يناهز الخمس وثمانين سنة [١] .

رحم الله الإمام المجاهد، والشهيد الزاهد، والتقى العابد : سعيد بن جبير .

---

(١) ابن الجوزى، صفة الصفوة، ج ٢ ص ٥٣٨ ـ ٥٣٩ بتصرف .

٣ ـ سفيان الثورى

الكادح الذى لا يبرح، والزاخر الذى لا ينزح، العارف المتفكر، والعالم المتذكر، صاحب الحذر والورع، والبكاء والضرع، سفيان بن سعيد بن مسروق الثورى، أحد زهاد الكوفة وعلم من أعلامهم، لقب بأمير المؤمنين فى الحديث [١].

سلك درب الزاهدين، حتى قُوِّم ما عليه من ملبس ونعال ، فقدر بدرهم وأربعة دوانق، وكان يضع يده على رأسه بالليل إذا سمع صيحة ويقول : قد جاءنا العذاب.

وكان يقول : ما من موطن من المواطن أشد على من سكرة الموت، أخاف أن يشدد علىّ ، فأسأل التخفيف ، فلا أجاب فأفتتن [٢] .

ازداد شحذه لهمته، وأخذ يتهادى فى طريق الزهد والخوف، فلم ير نهاية لإشباع طموحه، فلطالما ذهب لزيادة، وألقى بقلبه فى دروب العابدين حتى ختم القرب فى صفحة قلبه.

قال عنه أحد المعاينين لحاله المتخرجين عليه فى مجلس علمه : يعجبنى مجالس سفيان الثورى ، كنت إذا شئت رأيته فى الورع، وإذا شئت رأيته مصليًا، وإذا شئت رأيته فى الفقه، وما رأيت محدثًا أفضل من سفيان الثورى [٣] .

وقد اعتبر سفيان الورع سببًا فى تخفيف الحساب، وذلك لأن الورع وإن كان يؤلم الجسد لما فيه من تقييد لدوافع النفس تجاه مثيراتها، ولكنه سرعان ما

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٦ ص ١٩٣ . وابن كثير فى البداية والنهاية، ص ١٣٤ .
(٢) ابن الجوزى، صفة الصفوة، ج ٢ ص ٥٦٩ ـ ٥٧٠ بتصرف .
(٣) الإمام أبو نعيم الأصبهانى، حلية الأولياء، ج ٦ ص ٣٥٨ .

يوصل إلى الروح، فالورع شدة تهيأ أحسن الفرص لنفوذ سر الله إليه ودفع الشك باليقين، فتطهر جوانحه من سائر العلل.

يقول سفيان : عليك بالورع يخفف الله حسابك، ودفع ما يريبك إلى ما لا يريبك، وادفع الشك باليقين يسلم لك دينك ، ومن شدة ما قال فى الورع - قال عنه قتيبة بن سعيد : لولا سفيان الثورى لمات الورع [١] .

وبكى سفيان ونحب، واشتد وجع الخشية بقلبه حتى قال له رجل: يا أبا عبد الله ، أراك كثير الذنوب، فرفع شيئًا من الأرض فقال : والله لذنوبى أهون عندى من ذا، إنى أخاف أن أسلب الإيمان قبل أن أموت [٢] .

وواضح من هذا القول مدى خوف سفيان من الفتنة عند الخاتمة، ومع خوفه الشديد رأينا الأمل فى رجاء المغفرة من الله يتلألأ فى أنفاسه، فإذا بلسانه يتحرك بوحى من ذات مؤمنة بأجمل ما تحرك به لسان، فإذ به يقول : مَن أذنب ذنبًا فعلم أن الله قدَّره عليه، ورجا غفرانه، غفر الله له ذنبه [٣] .

وللثورى تصور فى النفس أصاب به قلب الحقيقة، إنه أدرك ما يعانيه المجاهد لنفسه من ثورة عارمة يكاد القلب أن يتلاشى منها، فبين اقتراف الذنب وبين الندم، وبين الإمساك عن الذنب، يستولى على الإنسان نوع من الضجر ، وكأن الكروب قد هوت على صفحة قلبه، وكأن الذنوب قد تثاقلت على عاتقه، فقد يصبح المرء أمام نفسه مهزومًا لانفلات زمام إرادته وعبوديته لشهوات تلك النفس، لذلك قال الثورى مقرًا بتلك المشقة :

---

(١) الإمام ابن أبى الدنيا، الورع، ص ١١٢، وهو صحيح الإسناد، بتحقيق : أبو عبد الله بن حمد، مطابع القبس، سنة ١٤٠٨هـ .

(٢) ابن الجوزى، صفة الصفوة، ج ١ ص ٥٧٠ .

(٣) الإمام . الغزالى، إحياء علوم الدين، ج ١ ص ١٤٥ .

ما عالجت شيئًا أشد علىَّ من نفسى، مرةً لى ومرةً علىّ [١] .

ولقد دق الثورى فى تشخيص البواطن، فكما شخص فى علم النفوس، برع فى عالم القلوب، فوصل إلى حال القلب عند تقلبه بين السعادة والحزن، والسعة والضيق، فبين قيمة اليقين إذا استقر فى القلب، وقد لخص صفة القلب عند يقينه بقوله :

لو أن اليقين استقر فى القلب كما ينبغى ، لطار فرحًا وحزنًا وشوقًا إلى الجنة، أو خوفًا من النار [٢] .

وكان سفيان الثورى يصدح بالحق، ولا يخاف فى الله لومة لائم، فراح مرة من مرات يملى ما أملاه عليه يقينه، ودخل فى مشادة أو محاجة لأبى جعفر المنصور أيام ولايته أمور المسلمين، فثارت جوارحه، وارتعدت فرائصه، وكأن روحه تكاد تنفلت من بين جنبيه ، غضبًا لفقراء المسلمين .

فقد دخل على أبى جعفر المنصور بمنى أثناء الحج، فقال المنصور : ارفع إلينا حاجتك.

فقال سفيان الثورى : اتق الله ، قد ملأت الأرض ظلمًا وجورًا.

قال : فطأطأ رأسه ثم رفعه، وقال : ارفع إلينا حاجتك، فقال الثورى : إنما أُنزلت هذه المنزلة بسيوف المهاجرين والأنصار، وأبناؤهم يموتون جوعًا فاتق الله، وأوصل إليهم حقوقهم، قال : فطأطأ رأسه، ثم رفعه وقال : ارفع إلينا حاجتك، فقال الثورى : حج عمر بن الخطاب ﷺ فقال لخازنه : كم أنفقت ؟ قال : بضعة عشر درهمًا، وأرى ها هنا أموالًا لا تطيقها الجبال [٣].

(١) المصدر السابق، ج ٣ ص ٧١ .
(٢) أبو نعيم، حلية الأولياء، ج ٧ ص ١٧ .
(٣) ابن النحاس، تنبيه الغافلين، ص ٤٣ ـ ٤٤ ، وابن أبى حاتم، الجرح والتعديل، ج ١ ص ١٠٦ .

إنها محاجة وصخب فى مواجهة أبى جعفر المنصور، حتى نسى الثورى ولاية المنصور، فقد عرف الإيمان طريقه إلى قلبه فهان فى عينيه كل سلطان إلا سلطان الله، ولم يعد يخشى لومة المنصور فى الحق، ولم يتذكر إلا حال الفقراء وحال عمر معهم ، وقد أنفق المال عليهم ولم يسرف فى إنفاقه فى الحج، إنها لم تتعد القليل من الدراهم .

ويُعد سفيان الثورى فى الصف الأول دفاعًا عن الصالحين والأولياء والمقربين، فكان الدفاع عنهم يملأ قلبه، ويستولى على تفكيره، وكان حبهم هدفًا لديه، وقد ترجم عن ذلك حين أخذته حمية دافقة، وغيرة دافعة فجهر بتلك المحبة وبذلك التقدير قائلًا :

عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة، ومن لم يحفظ من أخبارهم إلا ما بدر من بعضهم فى بعض على الحسد والهفوات، والتعصب والشهوات دون أن يعى بفضائلهم حُرم التوفيق ودخل فى الغيبة وحاد عن الطريق [١] .

وفى الوقت الذى ارتفعت فيه أمواج الإجلال فى قلب سفيان للصالحين، تعوذ من العالم الفاجر ، والعابد الجاهل، بل أمر طلابه بالتعوذ منهما فقال : تعوذوا بالله من فتنة العالم الفاجر ، والعابد الجاهل، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون[٢] .

وجد الثورى فى محاربة البدعة، وكان خليقًا بمحاربتها لأنها أمانة، كفءًا لحمل الأمانة، فالحق فيه ظهيرٌ يؤيده وينصره ويقف معه فى وجه كل ابتداع

(١) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، ج ٢ ص ١٦٢، طبعة دار الفتح، سنة ١٩٨٧م .
(٢) سنن الدارمى، ج ١ ص ١٠٧ برقم ٣٣٠ .

يخرج الناس من النور إلى الظلمات، إنه راح يزجر أهل البدعة وكل مبتدع قائلًا:

دع الباطل، أين أنت من الحق ؟! اتبع السنة، ودع البدعة [١] وقال فى وصف البدعة : البدعة أحب إلى إبليس من المعصية، المعصية يُتاب منها، والبدعة لا يثاب عليها [٢] .

ومن الفضائل التى نادى بها الثورى طلابه وأصحابه العفة ورفع البصر، فقد خرجوا فى يوم عيد فقال : إن أول ما نبدأ به فى يومنا عفة أبصارنا [٣] .

وهكذا عاش سفيان الثورى حياته فى عفة وطهر ونقاء وزهد، حتى قال عنه الإمام احمد بن حنبل: لا يتقدمه فى قلبى أحد، ثم قال : أتدرى من الإمام؟ الإمام سفيان الثورى .

وقال ابن المبارك : كتبت عن ألف شيخ ومائة شيخ هو أفضلهم .

وقال أيوب : ما رأيت كوفيًا أفضله عليه .

وقال شعبة : ساد الثورى الناس بالورع والعلم، وقال أصحاب المذاهب ثلاثة : ابن عباس فى زمانه، والشعبى فى زمانه، والثورى فى زمانه .

وبهذا يعد الثورى أحد أئمة الإسلام وعبَّادهم، والمقتدى بهم، روى عن غير واحد من التابعين، وروى عنه خلق من الأئمة وغيرهم.

---

(١) الإمام جلال الدين السيوطى، الأمر بالاتباع، ص ٨٣، تحقيق : ذيب بن منصور القحطانى، الرياض . وشرح السنة، للبغوى، ج ١ ص ٢١٧ .

(٢) الإمام ابن الجوزى، تلبيس إبليس، ص ١٣، تحقيق : محمود مهدى الإستانبولى، طبعة القاهرة، سنة ١٩٧٥م .

(٣) ابن أبى الدنيا، الورع، ص ٦٣ .

وقد أجمع العلماء على أن الثورى توفى فى البصرة سنة إحدى وستين ومائة، وكان عمره يوم مات أربعًا وستين سنة، ورآه بعضهم فى المنام يطير فى الجنة من نخلة إلى نخلة، ومن شجرة إلى شجرة، وهو يقرأ : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ [الزمر :٧٤] (١) .

رحم الله الثورى ، ورزقنا مسلكه وطريقته، وجمعنا وإياه فى مستقر رحمته .

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٠ ص ١٥٤ ،١٥٥ بتصرف .

obeikandl.com

رابعا : مدرسة الزهد بالبصرة

تعد البصرة من الأمصار الأولى فى تخريج العباد والزهاد، حتى ذهب بعض العلماء ـ ومنهم الإمام ابن تيمية ـ إلى أن منشأ التصوف كان بالبصرة؛ لما امتاز به عبادها من شدة الخوف [١] .

وسنتناول فى حديثنا عن مدرسة البصرة اثنين من شيوخها ، يعدان أساسًا فى التكوين العلمى والثراء الزهدى فى تلك المدرسة ، وهما .

الإمام الزاهد قتادة بن دعامة السدوسى .

وشيخ الزهاد : الحسن البصرى .

وسأكتفى بهذين العلمين ، رغم وجود غيرهما من أصحاب الصدارة فى مدرسة البصرة ، مثل الإمام أبى عثمان النهدى (١٠٠هـ ـ ٧١٨م)؛ لأن المجال لا يتسع لحصر كل الأعلام .

---

(١)الإمام ابن تيمية، رسالة الصوفية والفقراء، ص : ٢٠ .

١ ـ أبو الخطاب قتادة بن دعامة السدوسى

العالم الحافظ، الواعظ العامل قتادة بن دعامة السدوسى، أبو الخطاب البصرى الأعمى [١] .

أحد العلماء والأئمة العاملين، روى عن أنس بن مالك وجماعة من التابعين، منهم سعيد بن المسيب والبصرى، وأبو العالية، وزرارة بن أوفى، وعطاء ومجاهد، وحدث عنه جماعات من الكبار كالأوزاعى وشعبة والأعمش.

قال عنه ابن سيرين : هو من أحفظ الناس. وقال الإمام أحمد بن حنبل : هو أحفظ أهل البصرة، لا يسمع شيئًا إلا حفظه، وقال بكر المزنى: ما رأيت أحفظ منه [٢] .

وقد جالس الحسن البصرى اثنتى عشرة سنة [٣]، لذلك لا عجب من نباغته وفطنته وزهده .

وكان قتادة صاحب نظرة عميقة فى فهم نصوص القرآن الكريم، ومن عطاءاته فى ذلك :

قال : ما جالس القرآن أحد فقام عنه إلا بزيادة أو نقصان، ثم قرأ قول الله تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الإسراء] [٤] .

---

(١) تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلانى، ج ٣ ص ١٥٥ ، وسير أعلام النبلاء، للذهبى، ج ٥ ص ٢٦٩ .
(٢) الإمام ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٩ ص ٣٣٨ بتصرف .
(٣) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٧ ص ٢٢٩ .
(٤) سنن الدارمى، برقم ٣٣٤٤ .

وقال فى قول الله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ [آل عمران : ١٠٣] ، إذ كنتم تذابحون فيها، يأكل شديدكم ضعيفكم حتى جاء الله بالإسلام فآخى به بينكم، وألف به بينكم، أما والله الذى لا إله إلا هو ،إن الألفة لرحمة، وإن الفرقة لعذاب [١] .

وكان لقتادة صناعة حسنة فى الكلام عن فضل الدخول فى المعية الإلهية ، ومن حسن صناعته قوله : من وثق بالله، كان الله معه، ومن يكن الله معه يكن الفئة التى لا تغلب، والحارس الذى لا ينام، والهادى الذى لا يضل، والعالم الذى لا ينسى [٢] .

ولما كان الدخول فى المعية الإلهية يثبت العلم، كان العلم مع المعية يدًا فى صلاح الحال، وتلك لفتة أخذ قتادة ناظرنا إليها حين قال :

باب العلم يحفظه الرجل يطلب له صلاح نفسه، وصلاح دينه، وصلاح الناس، أفضل من عبادة حول كامل [٣] .

فتوجيه العلم مرتبط بالنية، فهو إما لصلاح حال فى دين، أو لصلاح دنيا دون دين، والمعنى الذى قصده قتادة المعنى الجامع لصلاح الدين والدنيا معًا .

وكان قتادة من العباد الزهاد القوامين، الذاكرين، ومن أبواب ذكره ختمهُ القرآن فى كل سبع ليال مرة، فإذا جاء العشر ختم فى كل ليلة مرة [٤] .

مات قتادة ـ رحمه الله ـ سنة سبع عشرة ومائة ، وعمره ست أو سبع وخمسون سنة [٥] .

---

(١) الإمام جلال الدين السيوطى، الدر المنثور، ج ٢ ص ٢٨٧ .
(٢،٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٩ ص ٣١٤ .
(٤) ابن الجوزى، صفة الصفوة، ج ٢ ص ٦٢٥ .
(٥) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٩ ص ٣٣٨ ، وصفة الصفوة، ج ٢ ص ٦٢٦ .

٢ ـ الإمام الحسن البصرى ﷺ

حليف الخوف والحزن، أليف الهم والشجن، الزاهد العابد الحسن بن أبى الحسن البصرى .

ولد فى خلافة عمر، وحنكه عمر بيده، وأمه خيرة مولاة لأم سلمة، كانت تخدمها، وربما أرسلتها فى الحاجة، فتشتغل عن ولدها الحسن وهو رضيع فتشاغله أم سلمة بثدييها، فيدران عليه فيرتضع منهما، فكانوا يرون أن تلك الحكمة والعلوم التى أوتيها الحسن من بركة تلك الرضاعة من الثدى المنسوب إلى رسول الله ﷺ .

ثم كان وهو صغير تخرجه أمه إلى الصحابة، فيدعون له، وكان فى جملة من يدعو له عمر بن الخطاب قال : اللهم فقهه فى الدين، وحببه إلى الناس.

وسُئل مرة أنس بن مالك عن مسألة، فقال : سلوا عنها مولانا الحسن البصرى، فإنه سمع وسمعنا، فحفظ ونسينا.

وقال أنس مرة : إنى لأغبط أهل البصرة بهذين الشيخين. الحسن البصرى، وابن سيرين .

وقال قتادة : ما جالست رجلًا فقيهًا إلا رأيت فضل الحسن البصرى عليه[1] .

لقد نال الحسن البصرى بركة المنبت، ونالته دعوة عمر بن الخطاب ، فانبعثت من أغواره أنوار الحكمة التى تهيب به أن ملك زمام العلم، وأنار نور

(١) المرجع السابق نفسه، والبداية والنهاية، ج ٩ ص ٢٨٨ .

اليقين قلبه، وأوضح لعينيه معالم الطريق الصحيح حتى ألفه الناس، فراح يحدثهم بما يساوره من أفكار ودرر، فخاض فى عمق السلوك الروحى وأفاض، تحدث فى باب التوبة وراح يعرفها بقوله :

التوبة ندم بالقلب، واستغفار باللسان، وترك بالجوارح، وإضمارٌ ألا يعود[١].

ووضع مقارنة بين التوبة وترك الخطيئة فقال :

يا بن آدم ، ترك الخطيئة أيسر من طلب التوبة [٢].

وقد تحدث إمام البصرة كثيرًا عن القلوب ونواياها، وحياتها وموتها، ويبدو أن هذا السبب جعل المتصوفة ومؤرخيهم يجعلونه من أئمة شيوخهم، واستفاض الحديث عن علم الباطن على وجه العموم فى منطق البصرى، ونستطيع أن نصنف حديثه عنه فى عدة نقاط :

النقطة الأولى : علم القلوب :

راح البصرى يُملى على مسامع القلوب علومها، وينفث فيها من أحوالها ما يفصح لها عن حقيقة حالها، فبين أن فى القلب حياة لو بعث القلب بسرها لتغيرت أمور كثيرة، وذلك حين بكى حتى رعدت منكباه، ثم قال :

لو أن بالقلوب حياة، لو أن بالقلوب صلاحًا لأبكيتكم من ليلةٍ صبيحتها يوم القيامة، إن ليلةً تمخض عن صبيحة يوم القيامة، ما سمع الخلائق بيوم قط أكثر فيه عورةٌ بادية، ولا عين باكية من يوم القيامة [٣] .

---

(١) ابن مفلح، الآداب الشرعية والمنح المرعية، ج ١ ص ٨٦، القاهرة، مؤسسة قرطبة، سنة ١٩٨٧م .
(٢) الإمام أحمد بن حنبل، الزهد، ص ٣٤٠ .
(٣) الإمام أحمد، الزهد، ص ٢٥٨ .

فكانت الصدور تنشرح على هذا الكلام، وتثور فى القلوب معانى الحياة لتعيش واقعًا يحكيه البصرى، وتشرد من أقفاص صدورها، لتسرح فى تلك الحقيقة عائدة بالمدامع تتصبب من سماء عيونها، إن البصرى كان الحزن مرتسمًا فى صفاح حاله .

ولعل تفسير حزنه الدائم كان بسبب نظريته فى الزهد، ويبدو أن طبيعة شخصية الحسن أيضًا تميل إلى الحزن، إذ يتذكر الموت دائمًا لكى يحثه على طاعة الله والخوف منه، ومما ساعد على سمة حزنه، انكبابه على التفكير فى المصير المحتوم، وانشغاله الدائم فى المقارنة بين الحياة الدنيا والحياة الأخرى بعد البعث [١] .

ولعل شدة حزنه كانت دافعًا ليغوص فى عمق القلوب، ويتعرف على عللها، حتى ذاعت سيرته فى الآفاق، فبينما شاب يمر عليه وقد بدت عليه بِزَّة[٢] له حسنة، فدعاه فقال له :

ابنُ آدم معجب بشبابه محب لشمائله، كأن القبر قد وارى بدنك، وكأنك قد لاقيت عملك، ويحك، داو قلبك، فإن مراد الله من العباد صلاح قلوبهم [٣] .

كما سلك البصرى فى دروب القلب، وترجم عن مقصد قول الله تعالى : ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ۝﴾ [الأنبياء] قال : معناه : الخوف الدائم فى القلب [٤] ، وقال فى قوله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝﴾

(١) د. مصطفى حلمى، الزهاد الأوائل، ص ١١٣ .
(٢) البزة : هى الهيئة والمظهر .
(٣) الإمام أبو حامد الغزالى، إحياء علوم الدين، ج ٣ ص ٣٥٩ .
(٤) عبد الله بن المبارك، الزهد، ص ٥٥، طبعة دار الكتب العلمية .

[المؤمنون] كان خشوعهم فى قلوبهم فغضوا بذلك أبصارهم وخفضوا لذلك الجناح [١].

النقطة الثانية : علم النفس :

أدرك الإمام البصرى أن للنفس آفات طبعت عليها وابلًا من الرذائل، وأكسبها من ذميم الصفات ما يدفعها إلى التهلكة، ويلقى عليها هالات من القبح الذميم كاتباع الهوى، والطمع والمعصية، كما تحدث عن فطام تلك النفس، لتصل إلى الورع عن طريق الرياضة والمجاهدة والمتابعة بالمحاسبة، فقال ﷺ فى حال المؤمن مع نفسه :

لا تلقى المؤمن إلا يعاتب نفسه: ماذا أردت بكلمتى؟، ماذا أردت بأكلتى ؟[٢].

كما ذكر البصرى خطورة أهواء النفس إذا أصابت القلوب، ومدى دَوى ذلك فى عالم الباطن، وما تودى إليه من خراب حيث يتولد عنها ظلام النفاق، يقول الإمام : الهوى شر داء خالط قلبًا [٣]،وقال : المنافق مشرك، إنه عبد هواه، ثم تلا قول الله تعالى : ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [الفرقان] [٤].

ولما كان اتباع الهوى مرضًا فى النفس، رأى الإمام الحسن أن مجانبة أهل هذا المرض مدعاة للسلامة؛ لأن مجالسة أصحابه قد تصيب بالعدوى، فكأنه ينظر

(١) الحافظ السيوطى ، الدار المنثور ، ج ٦ ص ٨٤ .

(٢) ابن أبى الدنيا، محاسبة النفس، ص ٢٦ ، إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، لابن قيم الجوزية، ص ٩٦، دار المعرفة، بيروت .

(٣) عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل، السنة، ج ١ ص ١٣٨، رقم ١٠٥، دراسة وتحقيق : محمد سعيد القحطانى، دار رمادى للنشر، طبعة ثانية، سنة ١٩٩٤م .

(٤) الشيخ . محمد الأمين الشنقيطى، أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن، ج ٦ ص ٣٣٠، مكتبة ابن تيمية، طبعة ثانية، سنة ١٤٠٨هـ .

إليه كمرض عضوى معدٍ بل أشد، ومن نصائحه فى ذلك : لا تجالسوا أصحاب الأهواء، ولا تجادلوهم، ولا تسمعوا منهم [١]؛لذلك عدَّ جهاد الهوى أعلى درجات الجهاد حين قال : أفضل جهاد جهاد الهوى [٢] .

ولقد طافت الأنوار فى عين ذات الإمام، وراح يضع حلولًا يخمد بها ثورة النفس وظمأها الذى لا يُروى، ونهمها الذى لا يشبع، فحل مشكلة الطمع النفسانى بالورع الروحانى حين سُئل عن ملاك الدين ؟،فقال : الورع، فقيل : فما آفته ؟ قال : الطمع، لذلك قال : الفقيه الورع الزاهد المقيم على سنة محمد ﷺ الذى لا يسخر بمن أسفل منه، ولا يهزأ بمن فوقه، ولا يأخذ على علم الله ﷻ حطامًا [٣] .

النقطة الثالثة : العلوم الروحية :

فتح البصرى نوافذ قلوب البصريين ـ وغيرهم ـ فى وجه نور العلوم الروحية التى تأخذ الأفئدة إلى معالم القرب من الله، فسلك طريق معرفة الله تعالى كباب للوصول إلى حبه، كما أفصح عن العلائق الشهوانية، والعوائق النفسانية التى تعطل مسيرة المعرفة الروحية أثناء ذكره مدى التعارض بين تلك المعرفة، وبين الاشتغال بالنفس لما قال :

مَن عرف ربه أحبه، ومن عرف الدنيا زهد فيها، ومن خلا عن الحب هذا فلأنه اشتغل بنفسه وشهواته، وذُهل عن ربه وخالقه، فلم يعرفه حق معرفته وقَصَر نظره على شهواته ومحسوساته [٤] .

---

(١) سنن الدارمى، ج ١ ص ٥٨ .
(٢) الإمام الماوردى،أدب الدنيا والدين،ص ٤١، طبعة دار الريان، طبعة أولى،سنة ١٤٠١هـ .
(٣) ابن مفلح، الآداب الشرعية والمنح المرعية، ج ٢ ص ٤٥ .
(٤) الإمام الغزالى، إحياء علوم الدين، ج ٤ ص ٣١٣ .

إن الإمام الحسن البصرى أخذ بأيدى الحيارى إلى سر وجودهم وأصل حياتهم، إنه العبودية سبيل الترقى بالروحية، ففى صيحة صارخة، وحرقة ممزقة، وكأن نور الخوف على نفسه وإخوانه من الجموح بعيدًا عن روحيتهم إلى دنيا أو شهوة أو نزوة يرضونها، كان هذا النور ينسكب فى وجدانه ويشرق فى فؤاده، وينطق به لسانه قائلًا :

صاحب الدنيا بجسدك، وفارقها بقلبك، وليزدك إعجاب أهلها بها زهدًا فيها، وحذرًا منها، فإن الصالحين كذلك كانوا، واعلم أنك تطلب أمرًا عظيمًا لا يقصر فيه إلا المحروم الهالك، فلا تركب الغرور وأنت ترى سبيله، ولا تدع حظك وقد عرض عليك [١] .

إن الإمام أخذ أعنة القلوب إلى حقيقة الأمر العظيم الذى تطلبه وهو العبودية الصادقة طلبًا لحياة روحية، وبعيدًا عن المادية المهلكة المنعوتة بالغرور .

الإمام البصرى يتذرى [٢] سنام الزهد :

خرج البصرى من طرق شهواته إلى طريق زهده واستراحت نوازعه وخواطره فيه، فشد فيه راحلته دون رجوع، وإنا لتأخذنا الدهشة والعجب حين يلقى علينا بيانه الذى سطره فى جو زهده المقمر، قال :

إن المؤمن يفجؤه الشىء يعجبه، فيقول : والله إنى لأشتهيك وإنك لمن حاجتى، ولكن والله ما من صلة إليك، هيهات هيهات، حيل بينى وبينك [٣] .

(١) أبو نعيم، حلية الأولياء، ج ٢ ص ١٤١ بتصرف .
(٢) يتذرى: يعلوى، والسنام : ظهر البعير .
(٣) ابن الجوزى، صفة الصفوة، ج ٢ ص ٦١٣ .

وقال فى خلاصة وإيجاز : من عرف ربه تبارك وتعالى أحبه، ومن أبصر الدنيا زهد فيها، والمؤمن لا يلهو، وإذا فكر حزن [١] .

وكان زهد الإمام البصرى يشوبه الانتظام، ويبعد عن الحرمان، فكان يتغذى الخبز واللحم ويشترى كل يوم لحمًا بنصف درهم [٢]، دون إسراف أو استجابة لتمادى نفسه فى الطلب، وذلك حد الاعتدال فى الزهد، فهو ينحصر بين العطاء والإمساك .

أجنحة التقوى الثلاثة تطير بالبصرى :

لقد طار الإمام الحسن من عالم الفرحة بالحزن، ومن عالم السكينة بالخوف، ومن عالم الضحك بالبكاء، طار بهذه الأجنحة الثلاثة الحزن والخوف والبكاء من عالم التدنى والاشتغال بمتع الدنيا، إلى عالم الترقى والانشغال بالمصير فى الآخرة، وبينما هو فى حال الخوف من المصير، وقد راحت فرحته، وإذا سألناه عن ذلك أجاب :

لقد فضح الموت الدنيا، فلم يترك لذى لب فرحا [٣].

وكان الحسن البصرى كثير الردع لنفسه بآيات القرآن حتى يذهب ضحكه بالبكاء، إنه كان يبكى حتى ينحدر الدمع على لحيته [٤] .

إن جو القرآن والتدبر الذى عاش فيه الإمام كان مدعاة للخوف ، الحزن والبكاء، إنه أقسم بالله قائلًا : لئن قرأت القرآن، ثم آمنت به ليطولن فى الدنيا

(١) الإمام أحمد، الزهد، ص ٢٧٩ .
(٢) د . محمد مصطفى، الزهاد الأوائل، ص ١٠٩ .
(٣) الإمام أحمد بن حنبل، الزهد، ص ٢٧٦ .
(٤) الإمام ابن سعد، الطبقات، ج ٧ ص ١٧٥ . .

حزنك، وليشتدن فى الدنيا خوفك، وليكثرن فى الدنيا بكاؤك [١]، وقد طبع ذلك على سائر أحواله حتى قال :

إن المؤمن ـ والله ـ ما يصبح إلا حزينًا ولا يمسى إلا حزينًا، وإن ضحك المؤمن إنما هو غفلة منه، وإن المؤمن لا يلهو حتى يغفل، وإذا فكر حزن .

وبات الحسن البصرى عند على بن زيد فبات ليلته باكيًا، قال : فلما أصبحنا قلت: يا أبا سعيد لقد أبكيت الليلة أهلنا.

قال : يا على، إنى قلت : يا حسن (يعنى نفسه) ، لعل الله نظر إليك فقال : اعمل ما شئت فلست أقبل منك شيئًا [٢] .

لقد عاش الإمام الحسن جوًا من الرهبة لا تطول فيه فرجة السكينة، فقد ضبط نفسه بضوابط لا فكاك منها، وهكذا كانت حياته .

وقد أجمع العلماء على أن الحسن كان جامعًا للعلم والعمل، عالمًا، رفيعًا، فقيهًا، ثقة، مأمونًا، عابدًا، زاهدًا، ناسكًا، كثير العلم والعمل، فصيحًا، جميلًا، وسيمًا، وقدم مكة فأجلس على سرير، وجلس العلماء حوله، واجتمع الناس إليه فحدثهم إلى أن لقى الله تعالى عن ثمان وثمانين سنة عام عشر ومائة فى رجب منها [٣] .

رحم الله إمامنا سيدنا الحسن ،وكساه بحسنه وإحسانه حُلى الحُسن ، وألحقنا به فى أعلى فراديس الجنان ، وغفر لنا وله ما طواه العُمر والزمن .

(١) الإمام أحمد، الزهد ، ص ٢٥٩ .
(٢) المصدر السابق، ص ٢٧٩ ـ ٢٨٠ بتصرف .
(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٩ ص ٢٨٨ .

خامسًا : مدرسة اليمن الزهدية

كانت اليمن كغيرها من الأمصار فى أخذ النصيب الوافر من الحياة الروحية، فسفراء تلك الحياة من الصحابة والتابعين قد انتشروا فى سائر الأقطار، وإن اختلف طابع هذه الأمصار عند تلقى الفكرة الروحية إلا أنها تتلاقى فى مصدرها الواحد.

وكان على رأس التابعين والرواد فى مدرسة اليمن الزهدية .

الإمام طاوس بن كيسان .

والإمام وهب بن منبه .

١ ـ أبو عبد الرحمن طاوس بن كيسان

العارف بربه، الهائم بحبه، الذاكر بذنبه، طاوُس بن كيسان اليمانى، من أكبر أصحاب ابن عباس، أول طبقة أهل اليمن من التابعين، وهو من أبناء الفرس الذين أرسلهم كسرى إلى اليمن، أدرك جماعة من الصحابة، وروى عنهم، وكان أحد الأئمة الأعلام، جمع العبادة والزهادة، والعلم النافع، والعمل الصالح، وقد أدرك خمسين من الصحابة، وأكثر روايته عن ابن عباس،وروى عن خلق من التابعين وأعلامهم،منهم مجاهد وعطاء والزهرى، ووهب بن منبه [1] .

توقل طاوس معارج الزهاد، وتذرى سنام الزهد، وقد جاء ابن لسليمان بن عبد الملك (أمير المؤمنين) فجلس إلى جنب طاوس فلم يلتفت إليه، فقيل له : جلس إليك ابن أمير المؤمنين فلم تلتفت إليه ؟

(١) الإمام ابن حجر العسقلانى، تهذيب التهذيب، ج ٥ ص ٨ ، والذهبى، سير أعلام النبلاء، ج ٥ ص ٣٨ .

قال : أردت أن يعلم أن لله عبادًا زهادًا يزهدون فيما بين يديه .

وقيل : ما رأيت أحدًا أشد تنزهًا مما فى أيدى الناس من طاوس، وكان طاوس يفترش فراشه ثم يضطجع فيتقلى كما تتقلى الحبة فى المقلى، ثم يثب فيدرجه ويستقبل القبلة حتى الصباح [١].

وقد جعل هذا الزهد طاوسًا ذا بصيرة ثاقبة، كشفت عنها كنوز مقاله الزاخر برجاحة العقل وإرهاف الضمير، فوقر فى وجدانه حب التورع وكانت لا تهفو نفسه إلى الدنيا، فقد تحلى بالطهر عن رذائلها، وراح يرهُب الناس من حب المال وكنزه، فجلس لديهم واعظًا يقول :

بلغنى أن الكنز يتحول يوم القيامة شجاعًا يتبع صاحبه ، وهو يفر منه ويقول : أنا كنزك، لا يُدرِك منه شيئًا إلا أخذه [٢].

وقد أقام طاوس نظريته فى الورع على مثال صاغه، حتى يأخذ الأفهام إليه بهالة من العظة تقطع علاقتهم بشهوات الدنيا، وتنزع عن قلوبهم خلعة العبودية لغير الله تعالى،فيكونوا أحرارًا وينعموا بمناجاة الواحد القهار، وقد أخذهم الخشوع دون حجب الشواغل الدنيوية، فها هو طاوس يجمع طلابه ليملى عليهم نظريته فى الورع فقال :

مثل الإسلام كمثل شجرة، فأصلها الشهادة، وساقها كذا وكذا، وورقها كذا ـ شيء سماه ـ وثمرتها الورع، لا خير فى شجرة لا ثمر لها، ولا خير فى إنسان لا ورع له[٣].

وكما غمر الورع جوانح طاوس ، فاض قلبه كذلك بالزهد، حتى جلس

(١) ابن الجوزى، صفة الصفوة، ج ١ ص ٣٨٤ ـ ٣٨٥ بتصرف .
(٢) موسوعة نضرة النعيم، إعداد نخبة من العلماء، ج ١١ ص ٥٢٠.
(٣) إسناده صحيح، انظر : ابن أبى الدنيا فى الورع ، ص ١٠٩ .

إليه الناس وألقوا أسماعهم إليه ، وفتحوا قلوبهم لمقاله، وملقوا أبصارهم فى حاله .

وقد قال له عمر بن عبد العزيز : ارفع حاجتك إلى أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك .

فقال طاوس : ما لى إليه حاجة [١].

إنه زهد عن التقرب للأمراء مع أنه كان ذائع الصيت بعلمه وصلاحه لديهم، فلن يردوه فى حاجة أبدًا .

وكشف طاوس عن علمه وحكمته، وهرع مغتبطًا ليعلنه على طلابه، وقد ملأت الرغبة فى رضا الله قلبه واستولت على تفكيره، مما جعله يرنو إلى الصدارة على أقرانه، وقد أشعر عن نزاهته وحنكته حين وضع نظرية العلم وقانونها : ما حُمِل العلم فى مثل جراب العلم [٢].

فالحماقة حسب نظريته تفسد العلم وتبطل سمات صلاحيته .

وبقيت كلمات الإمام طاوس ترنو فى كل زمان حتى يعتبر كل ذى قلب سليم، وكى يقتدى كل ذى علم حليم .

وقد توفى الله تعالى طاوسًا بمكة قبل يوم التروية بيوم، سنة ست ومائة عن عمر يناهز التسعين سنة.

وعن ضمرة بن شوذب قال : شهدت جنازة طاوس بمكة سنة ست ومائة فسمعتهم يقولون : رحمك الله أبا عبد الرحمن، حج أربعين حجة ـ رحمه الله [٣].

---

(١) الإمام أحمد، الزهد، ص ٣٧٦.
(٢) سنن الدارمى، ج ١ ص ١٥٢، برقم ٥٧٨.
(٣) ابن الجوزى، صفة الصفوة، ج ١ ص ٣٨٥ . .

٢ ـ أبو عبد الله وهب بن مُنَبِّه

المشمر للمهاد، المقدم بالعتاد للمعاد، المتجلى بسلوك الزهاد والعباد وهب بن منبه اليمانى ، تابعى جليل، له معرفة بكتب الأوائل وله صلاح وعبادة، ويُروى عنه أقوال حسنة، وحكم، ومواعظ، أدرك عدة من الصحابة، وأسند عن ابن عباس وجابر والنعمان بن بشير، وروى عن معاذ بن جبل وأبى هريرة وطاوس، وروى عنه كثير من التابعين.

ومن أقواله : مثل من تعلم علمًا لا يعمل به، كمثل طبيب معه شفاء لا يتداوى به .

وروى أن رجلًا أتاه بوشاية قائلًا: إنى مررت بفلان وهو يشتمك، فغضب وقال : ما وجد الشيطان رسولًا غيرك[1].

وقال وهب ـ وقد بزغ الخوف منه، والموعظة أشرقت من قلبه :

كُسى أهلُ النار والعرى كان خيرًا لهم، وطعموا والجوع كان خيرًا لهم، وأُعطوا الحياة والموت كان خيرًا لهم[2].

وصمد وهب أمام فتن الدنيا، وزهد عنها كصمود الطود لا تزعزعه العواصف، ولا تنال من عزيمته الشهوات، ولا تشغله عن تأييد روحه شواغل نفسه ؛ لأنه ارتضى أن تكون حياته لله، ومن كان لله لا يشغل عنه بما

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٥ ص ٥٤٣ . وأبو نعيم ، حلية الأولياء، ج ٤ ص ٢٣ ، والإمام الذهبى ، سير أعلام النبلاء، ج ٤ ص ٥٤٤ .
(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية، ج ٩ ص ٢٩٩ .

سواه، فقال والعواطف الرقيقة الحانية من فؤاده تغمر روحه بالسعادة والحذر فى آن واحد :

أعون الأخلاق على الدين الزهادة فى الدنيا، وأسرعها ردًا اتباع الهوى، وحب المال والشرف، ومن حب المال والشرف تنتهك المحارم، ومن انتهاك المحارم يغضب الرب، وغضب الله ليس له دواء[١].

وقال واعظًا لعطاء الخراسانى :

ويحك يا عطاء ، ألم أخبر أنك تحمل علمك إلى أبواب الملوك، وأبناء الدنيا، وأبواب الأمراء ؟

ويحك يا عطاء، ألم تأت من يغلق عنك بابه، ويظهر لك فقره، ويوارى عنك غناه، وتترك باب من يقول ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر : ٦٠] ؟

ويحك يا عطاء، إن كان يغنيك ما يكفيك، فأوهى ما فى الدنيا يكفيك، وإن كان لا يغنيك ما يكفيك، فليس فى الدنيا شىء يكفيك.

ويحك يا عطاء ، إنما بطنك بحر من البحور، وواد من الأودية لا يملؤه شىء إلا التراب [٢].

وقد بلغ ابن مُنبِّه فى العبادة مبلغًا عظيمًا يفصح عن الرجل ما ملأ به لياليه من نحيب وبكاء، وما فاض فى أوعيتها من مدامع، إنه ـ كما ورد عنه .

كان كثيرًا ما يصلى الصبح بوضوء العتمة،أى : قيام الليل، حتى قيل : لبث وهب عشرين سنة لم يجعل له بين العشاء والصبح وضوءًا [٣].

---

(١) الحافظ المزى ، تهذيب الكمال، ص ١٤٨٤ .
(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٩ ص ٢٩٩ .
(٣) ابن الجوزى، صفة الصفوة، ج ١ ص ٣٨٧ بتصرف .

ومن حكم وهب التى تعد من فصوص جوامع الكلم قوله :

ما طالت فكرة امرئ قط إلا فهم.

ولا فهم امرؤ إلا علم.

ولا علم . امرؤ قط إلا عمل [١].

وأعجبنى قوله عن الدنيا والآخرة:

مثل الدنيا الآخرة مثل ضرتين، إن أرضيت إحداهما، أسخطت الأخرى[٢].

وهكذا عاش ابن منبه حياته يثرى القلوب بسبائك الحكم، ويُجلى الصدور بنقاوة الزهد وحفاوة الخوف، إلى أن توفى بصنعاء سنة عشر ومائة وقيل : بعدها بسنة [٣].

رحم الله وهبًا، خير من أنقى قلبا، وأحسن من أعمل لُبا .

(١) الحافظ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ١ ص ٤٣٩ .
(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٩ ص ٣١١ .
(٣) ابن الجوزى، صفة الصفوة، ج ١ ص ٣٨٨ .

obeikandl.com

سادسًا : مدرسة مصر الزهدية

منذ أن فتحت مصر فى عهد عمر بن الخطاب ﷺ، وصحابة رسول الله ﷺ تترى عليها، فقد جاء إليها عمرو بن العاص، وابنه عبد الله، والزبير بن العوام، والمقداد بن الأسود [١] وغير هؤلاء الكثير.

وكان الزهد يعتلج بتلك القلوب اقتداءً واتباعًا، ومنهجًا أخذوا به أنفسهم، ودربًا سلكوه.

ومن هنا يمكن القول بأن هذه المدرسة شبيهة بمدرسة الزهد فى المدينة، سلفية المنزع عميقة المأخذ، وقد تبع هؤلاء الصحابة الوافدين على مصر الكثير من أهلها، ساروا خلفهم سالكين لله طريقًا يبتغون به وجه الله تعالى، ومن هؤلاء السالكين [٢]:

- حيوة بن شريح .
- الليث بن سعد .
- ذو النون المصرى .

١ - حيوة بن شريح

صاحب الخلوة، حاضر الجلوة، الزاهد الورع حيوة بن شريح المصرى، كان عامر القلب بالذكر، صافى الروح، بعيدًا عن كدر الشهوات، دائم الحزن والبكاء، عرف نفسه فلزم العبودية فى سائر أحواله، ومن عرف نفسه عرف

(١) د . أبو الوفا التفتازانى، مدخل إلى التصوف، ص٩٣ ، د . محمود أبو الفتوح السيد، أوائل الزهاد، ص ٢٦٥.
(٢) المصدر السابق نفسه والصفحة.

ربه، وعرف ما يراد منه، فأشغل نفسه، واستعملها فيما خلقت لـه، فأوقفهـا فى مواقف العبودية للقيام بحقوق الربوبية، ومتـى اشـتغلت بمعارضـة الربوبيـة فاتتها العبودية ولم تدرك الربوبية [١].

عاش حيوة صاحب دعاء دائم، ومن البكائين، وكان ضيق الحال جدًا [٢].

وكان حيوة يحب الخلوة، فاز بأعلى درجات الغنى فى خلوته مـع الله تعـالى، ففاض على قلبه صدق التوجه أنوارًا، فجعـل لـه الله تعـالى أنـوارًا فى شـعوره، فاستغنت نفسه بذلك .

قال خالد بن الفزار : جلست إلى حيوة ذات يوم وهو مُختَـلٍ وحـده يـدعو، فقلت : رحمك الله، لو دعوت الله ﷻ فوسع عليك فى معيشتك.

قال : فالتفت يمينًا وشمالًا فلم ير أحدًا، فأخذ حصاة مـن الأرض، فقـال : اللهم اجعلها ذهبًا.

قال : فإذا هى تبرة فى كفه ما رأيت أحسن منها.

قال : فرمى بها إلى وقال : ما خيرٌ فى الدنيا إلا الآخرة ، ثم التفت إلى وقـال : هو أعلم بما يصلح عباده.

فقلت : ما أصنع بهذه ؟ قال : أستنفقها [٣].

وكان حيوة من الثقات فى الرواية، قال أبو زرعة : سمع من عقبة بن مُسلم، وروى عنه الليث بن سعد [٤].

رحم الله حيوة، ورقى منزله وألحقنا به فى رياض الصالحين .

---

(١) العز بن عبد السلام، زبد خلاصة التصوف، المسمى بحل الرموز، ص ٥٢، دار الحسين.
(٢) الحافظ المزى، تهذيب الكمال، ج ٧ ص ٤٧٨.
(٣) الإمام الذهبى، سير أعلام النبلاء، ج ٦ ص ٤٠٤.
(٤) ابن الجوزى، صفة الصفوة، ج ٢ ص ٨٧٥.

٢ ـ أبو الحارث الليث بن سعد

الفقيه الورع، صاحب المآثر الذهبية، والأحوال النقية، الليث بن سعد ، المكنى بأبى الحارث، ولد سنة ثلاث وتسعين، واستقل بالفتوى والكرم بمصر.

قال أبو صالح : كنا على باب مالك بن أنس فامتنع علينا، فقلنا : ليس يشبه صاحبنا.

قال : فسمع مالك كلامنا فأدخلنا عليه، فقال لنا : من صاحبكم ؟

فقلنا : الليث بن سعد.

فقال : تشبهوننى برجل كتبنا إليه فى قليل عصفر نصبغ به ثياب صبياننا، وثياب جيراننا فأنفذ إلينا ما صبغنا به ثيابنا، وثياب صبياننا، وثياب جيراننا، وبعنا الفضلة بألف دينار [١].

أسند ﷺ عن خلق كثير من التابعين ، كعطاء، ونافع ، وأبى الزبير، والزهرى ، وقيل : إنه أدرك نيفًا وخمسين تابعيًا [٢].

كان الليث جوادًا عطاء، لا يأبه بالمال، كثير النفقة على المساكين والفقراء، وكان دائمًا فى مواقف الجود صاحب اليد العليا.

فقد روى عنه أنه وصل ثلاثة أنفس بثلاثة آلاف دينار : احترقت دار ابن لهيعة فبعث إليه بألف دينار، ووصل منصور بن عمار بألف دينار، وحج

(١)الإمام أبو نعيم الأصبهانى، حلية الأولياء، ج ٧ ص ٣١٨.
(٢)الإمام الذهبى ، سير أعلام النبلاء، ج ٨ ص ١٣٦.

فأهدى إليه مالك بن أنس رطبًا على طبق فرد إليه على الطبق ألف دينار، وقال :

لا يسمع بهذا ابنى فتهون عليه، فبلغ ذلك شعيب بن الليث فوصله بألف دينار إلا دينار،وقال: إنما نقصتك هذا الدينار لئلا أساوى الشيخ فى العطية.

وروى أن دخل الليث فى كل سنة ثمانين ألف دينار، وما وجب لله تعالى عليه زكاة قط، فكان يحول عليه الحول وعليه دين[١].

إن المال الذى كان فى حوزة الليث ليس له، والزكاة تجب على القادر، والليث كان ينفق ماله فى سبيل الله ولا ينتفع من ماله إلا بالقليل .

هكذا اتصف الليث بالعطاء، والفقه والورع، بعيدًا عن حب الدنيا والطمع، إلى أن توفاه الله تعالى يوم الجمعة لأربع عشرة ليلة بقيت من شعبان من سنة خمس وسبعين ومائة ، ودفن يوم الجمعة[٢].

رحمه الله ورضى عنه .

(١)الحافظ المزى، تهذيب الكمال، ج ٢٤ ص ٢٥٥.
(٢)الإمام ابن الجوزى، صفة الصفوة، ج ٢ ص ٨٧٨.

٣ ـ أبو الفيض ذو النون المصرى

جليس العارفين، ومضيف المساكين، وإمام البكائين، ثوبان بن إبراهيم، وقيل: ابن الفيض بن إبراهيم، أبو الفيض المصرى، أحد المشايخ المشهورين[١].

أصله من النوبة، وكان من قرية من قرى صعيد مصر يقال : لها إخميم ، فنزل مصر .

لقب بذى النون، وكان أبوه مولى لإسحاق بن محمد الأنصارى، وكان له أربعة بنين : ذو النون، وذو الكفل، وعبد البارى، والهميسع .

أسند أحاديث كثيرة عن مالك، والليث بن سعد، وسفيان بن عيينة ، والفضيل بن عياض، وابن لهيعة وغيرهم .

وقد رُؤى ذو النون على ساحل البحر، فلما جن الليل خرج فنظر فى السماء والماء، فقال : سبحان الله ! ما أعظم شأنكما، بل شأن خالقكما، أعظم منكما ومن شأنكما، فلما تهور الليل لم يزل ينشد هذه الأبيات إلى أن طلع عمود الصباح :

اطلبوا لأنفسكم ... مثل ما وجدت أنا
قد وجدت لى سكنًا ... ليس فى هواه عنا
إن بعدت قربنى ... أو قربت منه دنا[٢]

(١)الحافظ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٠ ص ٣٨٨.
(٢)الإمام أبو نعيم، حلية الأولياء، ج ٩ ص ٣٣١ ، وابن الجوزى، صفة الصفوة، ج ٢ ص ٨٧٩.

بلغ بعلمه وزهده وحسن سمته مبلغًا يرنو به إلى الصدارة على أقرانه، لم تعترضه عوائق المطامع والأهواء، له حكمة فى حديثه، وله حنكة فى تصوره، قال فى الزهد والإيثار قولًا ملك به الألباب، له نظرية عظيمة تعد مفتاحًا فى السلوك، وهديًا للزهاد، أدلى بها عندما سُئل : ما حد الزاهد المنشرح صدره ؟

فقال : ثلاث : تفريق المجموع (أى : توزيع المال المخزون) ، وترك طلب المفقود (الفانى)، والإيثار عند القوت [١].

وقد تغير حال ذى النون لما رأى تهافت العلماء على فتات المادة المتساقط من موائد الدنيا، وراح يندب ويرثى هؤلاء، ويبكى على من راح من المخلصين من العلماء، فقد بقيت سيرتهم تفوح عبقًا فى نفسه، وإن غابت أجسادهم من الدنيا، قال ـ رحمه الله :

كان الرجل من أهل العلم يزداد بعلمه بُغضًا للدنيا وتركًا لها، فاليوم يزداد الرجل بعلمه للدنيا حبًا وطلبًا،وكان الرجل يُنفق ماله على العلم،واليوم يكتسب الرجل بعلمه مالًا، وكان يُرى على طالب العلم زيادة صلاح فى باطنه وظاهره، فاليوم يُرى على كثير من أهل العلم فساد الباطن والظاهر[٢].

ومن كلامه الذى غزا به القلوب، وفتح به مسامعها، وصب فيها من حكمته قوله :

من ذبح حنجرة الطمع بسيف اليأس، وردم خندق الحرص، ظفر بكيمياء الخدمة، ومن استقى بحبل الزهد على دلو المعروف، استقى من جب الحكمة،

(١)الإمام القرطبى، الجامع لأحكام القرآن، ج ١٨ ص ٢٠.
(٢)العلامة ابن الحاج العبدلى، المدخل إلى الشرع الشريف، ج ٢ ص ١٢٦، طبعة دار الفكر، بيروت، سنة ١٩٧٧م.

ومن سلك أودية الكمد، جنى حياة الأبد، ومن حصد عشب الذنوب بمنجل الورع، أضاءت له روضة الاستقامة، ومن قطع لسانه بشفرة الصمت وجد عذوبة الراحة، ومن تدرع درع الصدق، قوى على مجاهدة عسكر الباطل، ومن فرح بمدحة الجاهل ألبسه الشيطان ثوب الحماقة [١].

وأعجبنى قوله ـ رحمه الله تعالى :

لم أر شيئًا أبعث لطلب الإخلاص مثل الوحدة؛

لأنه إذا خلا لم ير غير الله، فإذا لم ير غير الله، لم يحركه إلا حكم الله، ومن أحب الخلوة، فقد تعلق بعمود الإخلاص [٢].

ولما حضرته الوفاة وسُئل عن حاله ، قال :

أموت وما ماتت إليك صبابتى ... ولا رويت من صدق حبك أوطارى
منای المنى كل المنى أنت لى منى ... وأنت الغنى كل الغنى عند إقتارى
وأنت مدى سؤلى وغاية بغيتى ... وموضع آمالى ومكنون إضمارى
تضمن قلبى منك مالك قد بدا ... وإن طال سرى فيك أو طال إظهارى
وبين ضلوعى منك ما لا أبثه ... ولم أبد باديه لأهل ولا جار
سرائر لا يخفى عليك خفيها ... وإن لم أبح حتى التنادى بأسرارى
فهب لى نسيما منك أحيا بروحه ... وجد لى بيسر منك يطرد إعسارى
أنرت الهدى للمهتدين ولم يكن ... من العلم فى أيديهم عشر معشار
وعلمتهم علمًا فباتوا بنوره ... وبانت لهم منه معالم أسرار
معاينة للغيب حتى كأنها ... لما غاب عنها منه حاضرة الدار
وأبصارهم لها الهم المفرق والتقى ... على قَدَرٍ والهم يجرى بمقدار

(١)الإمام ابن الجوزى، صفة الصفوة، ج ٢ ص ٨٨١.
(٢)الإمام الذهبى، سير أعلام النبلاء، ج ١١ ص ٥٣٢، وأبو نعيم، الحلية، ج ٩ ص ٣٢١.

جمعت لها الهم المفرق والتقى ... على قدر والهم يجرى بمقدار
ألست دليل القوم إن هم تحيروا؟ ... وعصمة من أمسى على جرف هار
وما لى سوى إلاطراق والصمت حيلة ... ووضعى على خدى يدى عند تذكارى
وإن طرقتنى عبرة بعد عبرة ... تجرعتها حتى إذا عيل تصبارى
أفضت دموعًا جمة مستهلة ... أطفى بها حراً تضمن أسرارى
فيا منتهى سؤال المحبين كلهم ... أبحنى محل الأنس مع كل زوار
ولست أبالى فائتًا بعد فائت ... إذا كنت فى الدارين يا واحدى يا جارى[1]

وتوفى ـ رحمه الله تعالى ـ بالجيزة ، وحمل فى مركب إلى الفسطاط خوفًا عليه من زحمة الناس على الجسر، ودفن فى مقابر أهل المعافر، وذلك فى يوم الاثنين لليلتين خلتا من ذى القعدة من سنة ست وأربعين ومائتين ، وقيل : ثمان وأربعين ومائتين[2].

رحم الله الشيخ الزاهد والورع العابد شيخ الصالحين ذا النون المصرى .

(١) الإمام ابن الجوزى، صفة الصفوة، ج ٢ ص ٨٨٢.
(٢) المصدر السابق، الصفحة نفسها ، والبداية والنهاية، لابن كثير، ج ١٠ ص ٣٨٨.

obeikandl.com

سابعًا : مدرسة الشام الزهدية

مع أن بلاد الشام تقترب من بلاد الروم ومعاقل المسيحية ،حيث إنها تقع فى الطرف الشمالى من الجزيرة العربية، إلا أنها فى جانبها الزهدى لم تتأثر بالرهبنة المسيحية، وإن وجد فيها بعض الفرق المعادية لسيدنا على بن أبى طالب، وشرذمة من القدرية، وبعض من الشيعة، راح أهل السنة جاهدين لتثبيط نفوذهم، وإيقاف مدهم . مستمسكين بسيرة الزهاد الأوائل ،وعلى رأسهم .

عمر بن عبد العزيز . وأبو سليمان الدارانى .

١ ـ الأمير الزاهد أبو حفص عمر بن عبد العزيز

الساهر البكاء، المنفق فى الخفاء، الأمير الزاهد أبو حفص عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبى العاص، أمير المؤمنين، أمه أم عاصم ليلى بنت عاصم بن عمر بن الخطاب.

كان تابعيًا جليلًا، روى عن أنس بن مالك، والسائب بن زيد وغيرهما، وروى عن كثير من التابعين، بويع بالخلافة بعد ابن عمه سليمان بن عبد الملك، عن عهد منه بذلك .

قيل إنه ولد سنة إحدى وستين، وقيل: سنة ثلاث وستين، وقيل: تسع وستين، على خلاف بين العلماء[1].

(١) ابن حجر العسقلانى، تهذيب التهذيب، ج ٣ ص ٨٨ ، وابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج ١ ص ٢٤٦.

سلك طريق الزاهدين، وذهبت نفسه شعاعًا من خشية الله، أقام الليل حتى أنحلَه السُّهد[١]، وبَرى الشوق عظمه، صار أليف شجن[٢]، لما بويع بالخلافة .

إنه دخل المسجد ، وصعد المنبر ، واجتمع الناس إليه فقال :

يا أيها الناس ، إنى قد ابتليت بهذا الأمر من غير رأى كان منى فيه، ولا طلبة له، ولا مشورة من المسلمين، وإنى قد خلعت ما فى أعناقكم من بيعتى فاختاروا لأنفسكم.

فصاح المسلمون صيحة واحدة : قد اخترناك يا أمير المؤمنين ورضينا بك، فَلِ باليُمن والبركة.

فلما رأى الأصوات قد هدأت، وأن القوم مصرون على توليته، صلى على رسول الله ﷺ وأوصاهم بتقوى الله، والعمل للآخرة ، والزهد عن الدنيا وتذكر الموت، ولما نزل دخل، فأمر بالستور فهتكت، والثياب التى كانت تُبسط للخلفاء فحملت وأمر ببيعها، وإدخال أثمانها فى بيت مال المسلمين[٣].

ولما استقرت الخلافة باسمه، انقلب وهو مغتم مهموم، فالخلافة سلبت فرحة فؤاد، وأصبح بها كَلِف العقل والفكر، فلما سأله مولاه عن هذه الحال المليئة بالعبرات قال : ويحك ، ومالى لا أغتم وليس أحد من أهل المشارق والمغارب من هذه الأمة إلا وهو يطالبنى بحقه أن أؤديه إليه .

إنه شرد مشغولًا عن امرأته فاطمة ، حتى قالوا : إنه خَيَّرها بين أن تقيم معه على أنه لا فراغ له إليها، وبين أن تلحق بأهلها، فبكت وبكى جواريها لبكائها، فسمعت ضجة فى داره، ثم اختارت مقامها معه على كل حال ـ رحمها الله .

---

(١)السُّهد : السهر. (٢)هم وحزن.

(٣)ابن الجوزى، صفة الصفوة، ج ١ ص ٣٠٨.

إنه شرد مشغولًا عن امرأته فاطمة ، حتى قالوا : إنه خَيَّرها بين أن تقيم معه على أنه لا فراغ له إليها، وبين أن تلحق بأهلها، فبكت وبكى جواريها لبكائها، فسمعت ضجة فى داره، ثم اختارت مقامها معه على كل حال ـ رحمها الله .

وقال له رجل : تفرغ لنا يا أمير المؤمنين، فأنشأ يقول :

قد جاء شغل شاغل وعدلت عن طريق السلامة

وذهب الفراغ فلا فرا غ لنا إلى يوم القيامة[1]

هكذا تثاقلت أعباء الإمارة على سيدنا عمر بن عبد العزيز، إنه أصبح قلق الحال، يصرف وجهه فى آفاق السماء والأرض، فلا ينظر فى ناحية إلا رأى فيها رعية، فازداد همه، وتثقال غمه .

عَبَرات[2] عمر تسطِّر زهده :

راح أمير المؤمنين يقص على رعيته آلام الجوى التى تملؤه وقد تبدت على وجهه ملامح الخوف والخشية، واكتست أحواله بصفات الزهد والرهبة، إنها آلام الحقيقة التى كشفت عن وجه الدنيا لئام الفناء، وأرقت لديه العقل والأعضاء، وشغلته بحين اللقاء، إن أمير المؤمنين لم يتوان عن خطبة صارخة فى الناس توقد فيهم مجامر الزهد والرفعة، فصعد المنبر وقال :

ألا ترون أنكم فى أسلاب الهالكين[3]، ثم يرثُها بعدكم الباقون كذلك ، حتى يُردَّ إلى خير الوارثين، وفى كل يوم تُشيعون غاديًا ورائحًا قد قضى نحبه ،

(١) الحافظ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٩ ص ٢١١ ـ ٢١٢.
(٢) عبرات : دموع.
(٣) أسلاب الهالكين: أى المجموع بالوراثة ممن ماتوا.

فتودعونه وتدعونه فى صدع من الأرض غير ممهد ولا موسد[١]، قد فارق الأحباب وخلع الأسباب، وسكن التراب، وواجه الحساب، غنيًا عما خلَّف، فقيرًا إلى ما قدم ، وأنشد قائلًا :

من كان حين تصيبُ الشمس جبهتَهُ أو الغبار يخاف الشيْن[٢] والشعثا[٣]

ويألف الظل كى تبقى بشاشتــــه فكيف يسكن يومًا راغما جَدَثا ؟[٤]

فى ظل مُقفِرَة[٥] غبراء[٦] مُظلمــةٍ يُطيلُ تحت الثرى فى غَمِّه اللبثــا

تجهزى بجهــازٍ تبلغــين بــــه يا نفس قبل الردى[٧] لم تُخلقى عبثا[٨]

إنه عَدمَ النوم والصبر والهنا، وفارق إلفًا كان منه مدانيا، فقد زاد شغله بلقاء الله تعالى .

ومن كلامه فى استصغار الدنيا :

بينما ابن آدم فى الدنيا ينافس، قرير العين فيها يانع، إذ دعاه الله بقدره ورماه بسهم حتفه، فسلبه أثارة[٩] دنياه، وصيَّر إلى قوم آخرين مصانعه ومغناه، إن الدنيا لا تسُر بقدر ما تضر، تسر قليلًا وتُحزن طويلًا[١٠].

---

(١) أى : بلا فراش ولا وسادة ولا إعداد.
(٢) الشيْن : العيب والقبح.
(٣) من شَعِثَ الشعر شَعَثًا وشعوثة : اغبّر وتبلد، وشَعِثَ البدن : أى اتسخ.
(٤) الجَدَث : مفرد أجداث وهو القبر.
(٥) مقفرة : أرض خالية.
(٦) الغبراء : الأرض.
(٧) الرَّدى : الهلاك.
(٨) ابن رجب الحنبلى، أهوال القبور وأحوال أهلها إلى النشور، ص ١٥١ ـ ١٥٢، طبعة دار الهجرة، طبعة ثانية، سنة ١٤٠٧ هـ.
(٩) الأثارة : العلامة.
(١٠) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٩ ص ٢١٢.

وقال مالك بن دينار : يقولون : مالك زاهدًا ؟ أى زهد عندى ؟! إنما الزاهد عمر بن عبد العزيز، أتته الدنيا فاغرة[١] فاها، فتركها جملة، قالوا : ولم يكن له سوى قميص واحد، فكان إذا غسلوه جلس فى المنزل حتى ييبس [٢].

حتى إنه مرض ذات مرة ﷺ فعاده مسلمة بن عبد الملك وقال : دخلت عليه فإذا عليه قميص وسخ، فقلت لفاطمة بنت عبد الملك : يا فاطمة، اغسلى قميص أمير المؤمنين، قالت : نفعل إن شاء الله، ثم عدت فإذا القميص على حاله، فقلت : يا فاطمة ، ألم آمركم أن تغسلوا قميص أمير المؤمنين، فإن الناس يعودونه ؟ قالت : والله ما له قميص غيره.

نعم .. إنه قميص واحد باثنى عشر درهما يرتديه، وتبدو أضلاعه منه بارزة، حتى قال يونس بن شبيب : ولو شئت أن أعد أضلاعه من غير أن أمسها لفعلت [٣].

حقًا ، إننى ليأخذنى العجب من حال أمير المؤمنين الذى بدت أضلاعه من ثوبه تعبر عن جوعه وزهده، إنه حال يجعلنا نندب حالنا، ونئن ضحى وعشية حتى يعلو العويل بدويه أركان الكون .

إن زهد أمير المؤمنين نتج عن خوف وحزن وبكاء من خشية الله، ترجم عنها حين خرج فى جنازة، فلما دفنت قال لأصحابه : قفوا حتى آتى قبور الأحبة فأتاهم، فجعل يبكى ويقول :

---

(١)فاغرة : فاتحة.

(٢)المصدر السابق، ص ٢١٦.

(٣)ابن الجوزى ، صفة الصفوة، ج ١ ص ٣٠٩.

هذه قبور آبائى من بنى أمية، كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا فى لذتهم وعيشهم، أما تراهم صرعى قد خلت بهم المثلات، واستحكم فيهم البلاء، ثم بكى حتى غُشى عليه، ثم أفاق [١].

يا لها من حياة عقيمة ، عاشها عمر بن عبد العزيز ، ذلك الفتى الذى شب على الدلال والبذخ والطيب الذى ملأ بعبثه دروب الشام، لقد تجرد الفتى عن كل ذلك فأصاب تلك الحياة بالعقم، فلم تنجب له بعده رغدًا .

الأمير تفيض روحه زاهدًا :

لما كانت الصرعة التى مات فيها عمر، دخل عليه مسلمة بن عبد الملك وقال : يا أمير المؤمنين ، إنك أفقرت أفواه ولدك من هذا المال، وتركتهم عيلة لا شىء لهم، فلو وصيت بهم إلى! وإلى نظرائى من أهل بيتك.

فقال أمير المؤمنين : أسندونى ، ثم قال : أما قولك ، إنى أفقرت أفواه ولدى من هذا المال، فو الله إنى ما منعتهم حقًا هو لهم ، ولم أعطهم ما ليس لهم.

وأما قولك : لو أوصيت بهم فإن وصيِّى ووليِّى فيهم الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين.

ثم بعث إليهم وهم بضعة عشر ذكرًا، ونظر إليهم فذرفت عيناه ثم قال : بنفسى الفتية الذين تركتهم عيلة لا شىء لهم، فإنى بحمد الله تركتهم بخير. أى بنى، إن أباكم مَثَلَ بين أمرين : بين أن تستغنوا ويدخل أبوكم النار، أو تفتقروا ويدخل أبوكم الجنة، فكان أن تفتقروا ويدخل أبوكم الجنة أحب إليه من أن تستغنوا ويدخل النار، قوموا عصمكم الله .

---

(١)الذهبى، سير أعلام النبلاء، ج ٥ ص ١١٤ ، وابن حجر، تهذيب التهذيب، ج ٧ ص ٤٧٥ ، وأبو نعيم، حلية الأولياء، ج ٥ ص ٢٥٣.

ففاضت روحه ﷺ زاهدًا، وكانت وفاته سنة إحدى ومائة لعشر ليال بقين من رجب، وهو ابن تسع وثلاثين سنة وأشهر، وكانت خلافته سنتين وخمسة أشهر [١].

رحم الله أمير المؤمنين ، وأكرمنا على سَيْره بالفناء فى طريق الزاهدين ، وجمعنا وإياه فى زمرة الصالحين .

(١) الإمام ابن الجوزى، صفة الصفوة، ج ١ ص ٣١٢.

obeikandl.com

٢ ـ أبو سليمان الدارانى

الزاهد الورع، الذاكر الصابر أبو سليمان الدارانى عبد الرحمن بن عطية ، وقيل : عبد الرحمن بن أحمد بن عطية ، وقيل : عبد الرحمن بن عسكر أبو سليمان الدارانى، أحد الأئمة العلماء العاملين .

والدارانى نسبة إلى داريا قرية من دمشق، وقيل : ضيعة إلى جنب دمشق، وقد سمع الدارانى الحديث من سفيان الثورى وغيره، وروى عنه أحمد بن أبى الحوارى وجماعة .

حكى عنه أنه قال : اختلفت إلى مجلس قاض ، فأثر كلامه فى قلبى، فلما قمت لم يبق فى قلبى منه شىء، فعدت إليه ثانية، فأثر كلامه فى قلبى بعدما قمت وفى الطريق، ثم عدت إليه ثالثة، فأثر كلامه فى قلبى حتى رجعت إلى منزلى، فكسرت آلات المخالفات، ولزمت الطريق [١].

وقال أحمد : اشتهى أبو سليمان يومًا رغيفًا حارًا بملح، فجئته به، فعض منه عضة، ثم طرحه، وأقبل يبكى، ويقول : يا رب ، عجلت لى شهوتى، لقد أطلت جهدى وشقوتى وأنا تائب[٢].

والدارانى مما عانى كثيرًا من المجاهدات، متهجدًا بالليل قوامًا، أصبح يرى فى طاعة الله لذة لا يجدها أهل اللهو بلهوهم، ولكنه متبع للسلف فى مجاهداته، فلا يقبل منها إلا ما شهد بصحته الكتاب والسنة، ويعى إلى رزقه أولًا فيحصل على لقمة العيش، ثم يتعبد[٣].

---

(١)ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٠ ص ٢٨٨.
(٢)المصدر نفسه، ص ٢٨٩.
(٣)د . مصطفى حلمى، الزهاد الأوائل، ص ١٣٥.

وكان الدارانى متيمًا بحب رسول الله ﷺ والصلاة عليه حتى وصل إلى حال يمتلئ فيه جواه حرقة من شدة الوجد، ويلذع الحب شغاف قلبه، ورأى بركة الصلاة عليه عند الدعاء تحقق الإجابة من الله تعالى، قال رحمه الله :

من أراد أن يسأل الله حاجة، فليبدأ بالصلاة على النبى ﷺ، ثم يسأله حاجته ثم يختم بالصلاة على النبى ﷺ ، فإن الله ﷻ يقبل الصلاتين، وهو أكرم من أن يدع ما بينهما [١].

الدارانى بين الخوف والزهد :

توجس الدارانى خيفة من الآخرة، واستشعر الخشية من المصير، فأرهبه ذلك أيامه ولياليه مما أزهده فى الدنيا، وظل يعمل ويكسب ويزهد فيما يكسبه، إنه صرف الرغبة عن الدنيا إلى الآخرة فجلس مع طلابه يشد من أزرهم فى هذا الطريق وقال : عَوِّدُوا أعينكم البكاء، وقلوبكم التفكر.

وقال : الفكر فى الدنيا حجاب عن الآخرة، والفكر فى الآخرة يورث الحكمة ويحيى القلوب[٢].

وقال : ينبغى للخوف أن يكون على العبد أغلب من الرجاء، فإذا غلب الرجاء على الخوف فسد القلب .

وقال : لو أن أهل الأرض اجتمعوا على أن يضعونى كاتضاعى عند نفسى ما قدروا.

وقال : من أحسن فى نهاره كوفئ فى ليله، ومن أحسن فى ليله كوفئ فى نهاره ومن صدق فى ترك شهوة أذهبها الله من قلبه ، والله أكرم من أن يعذب قلبًا بشهوة تركت له.

---

(١)الإمام أبو حامد الغزالى، إحياء علوم الدين، ج ١ ص ٣٠٧.
(٢)المصدر نفسه، ج ٤ ص ٤٢٥.

وإذا سكنت الدنيا القلب ترحلت منه الآخرة، وإن كانت الآخرة فى القلب جاءت الدنيا تزاحمها، وإذا كانت الدنيا فى القلب لم تزاحمها الآخرة ؛ لأن الدنيا لئيمة، والآخرة كريمة، وما ينبغى لكريم أن يزاحم لئيما[١].

ومع خوف الدارانى وزهده ؛ إلا أن نظريته فيها مرتبطة بمحبة الله تعالى، فقد أعلن الدارانى تمسكه بنظرية الحب والعفو والكرم الإلهى التى تنجيه من عذاب الله ﷻ، إذ يقول فى دعائه : وعزتك وجلالك لئن طالبتنى بذنوبى لأطالبنك بعفوك، ولئن طالبتنى ببخلى، لأطالبنك بكرمك، ولئن أمرت بى إلى النار لأخبرن أهل النار أنى أحبك[٢].

بهذه الكلمات ترنم الدارانى فى رحاب الزاهدين، فتقلب بين الخوف والزهد والحب ، كى ينعم بحياة تعلوها السكينة والسياحة المطمئنة فى معارج السالكين ومدارج العارفين .

إنه حاسب تلميذه أحمد بن أبى الحوارى على تنهده ،وهو عنده قائلًا : إنك مسؤول عن تنهيدتك يوم القيامة، فإن كانت على ذنب سلف فطوبى لك، وإن كانت على فوت دنيا أو شهوة فويل لك [٣].

على هذه الحال عاش الدارانى محاولًا مقاومة الخوف بالثقة والمحبة لله ؛ ليرد نفسه إلى طبعها الهادئ ، لتستطيع أن تسير فى ركب الزاهدين، لعله يضفى على قلبه هالة من الهدأة تخفف عنه أعباء الخوف .

وقد اختلف الناس فى وفاته على أقوال : فقيل : مات سنة أربع ومائتين، وقيل : سنة خمس ومائتين، قال ابن الجوزى : والأول أصح، ودفن ﷺ فى قرية

(١)ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٠ ص ٢٩٠ بتصرف.
(٢)د . مصطفى حلمى، الزهاد الأوائل، ص ١٣٧ .
(٣)ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٢ ص ٢٩٢.

داريا فى قبلتها، وقبره بها مشهور، وعليه بناء ، وقبلته مسجد بناه الأمير ناهض الدين عمر النهروانى.

وروى ابن عساكر عن أحمد بن أبى الحوارى، قال : كنت أشتهى أن أرى أبا سليمان فى المنام، فرأيته بعد سنة، فقلت له : ما فعل الله بك يا معلم ؟ فقال : يا أحمد ، دخلت يومًا من باب صغير، فرأيت حِمْل شيخ فأخذت منه عودًا، فما أدرى تخللت به أو رميته، فأنا فى حسابه إلى الآن [1].

رحم الله شيخنا الدارانى ،ووسده فى قبره على مهاد الصالحين ،وألحقنا به فى رياض الفالحين .

هذا ، والزهاد فى مدرسة الشام كثير ، كما أنهم كذلك فى سائر المدارس ، وما ذكرناه ما هو إلا لمحة عابرة بنصف عين ، ونسأل الله تعالى أن يجعل هذا البحث مشكاة تنير الطريق للوصول إلى مرضاة الله ﷻ ، وخطًا مستقيمًا نسلكه يأخذ بأيدينا إلى الجنة، وسلامة لقلوبنا، وتخليصًا لها بما ران عليها من صدأ المعاصى ، حتى يعود لمعانها من جديد ، تحت نور فجر إيمانى يشرق على ساحتها ، فيملأ جنباتها هدًى ورحمة .

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية، ج ٢ ص ٢٩٢.

obeikandl.com

الخاتمـــة

من الدراسة السابقة لجانب الزهد فى حياة الأوائل سواء كانوا من الصحابة أو غيرهم من الصوفية الفقهاء من التابعين، نصل إلى أن تلك الحياة الزهدية امتدت عبر التاريخ فى حياة أهل التصوف المخلصين لا الدخلاء، وأن الزهد فى التصوف الإسلامى رفيع عن تدنٍ أساء به بعض الدخلاء عليه، والذين كانوا سببًا رئيسًا من أسباب الجدل الذى اكتظت به الساحة حتى وصل الأمر إلى الاختلاف المذموم، بين مدافع يرى فى التصوف أرقى درجات الرقى الروحى، وبين معارض يمقت التصوف ويرى فيه أشد الأخطار الفكرية على الإسلام، ما أدى إلى تفرقة صف الأمة وشق عصاها للأسف الشديد، وخصوصًا فى تلك الآونة بالذات، حتى ادلهمّت فيها الخطوب، وحلك الظلام والحيرة فى الفصل بين الحق والباطل، لذلك آثرت أن أطوى فى سطور موجزة أصالة الزهد فى مدرسة الصوفية الأوائل ليثبت صلة التصوف الحق بالإسلام والفطرة الإنسانية، بل هو عين الإسلام، على حد قول العلماء المنصفين، وذلك بعيدًا عن أهل البدع والخرافة من الدخلاء عليه الذين يمقتهم التصوف نفسه .

وفى ذلك يقول الدكتور زكى مبارك :

إن التصوف خليق بأن يصحب كل نزعة شريفة من النزعات الوجدانية، بحيث لا تملك النفس أن تنصرف عنه، آمنت به، واطمأنت إليه فى عالم المعانى الروحية [1]، وكى لا يأثم من ظلم التصوف بغيّر علم سواء كان بسبب جهل

(١) د . زكى مبارك، التصوف الإسلامى فى الأدب والأخلاق، ج ١ ص ١٧، طبعة دار الجيل، بيروت، بدون تاريخ.

دخلائه أو نيل أعدائه، آثرت أن أختم هذا البحث بتلك اللفتة العاجلة علَّها تصلح ما انكسر فى جدار الفكر المعاصر بسبب ما شاب الساحة من قلاقل، فالزهد أساس فى مفهوم التصوف بل هو عينه، وقيام أمر الزهد فى التصوف مبنى على أساس تأثر القلب سلباً تجاه الشئ المرغوب للنفس لا تأثر عين الشيء المزهود فيه، حتى تصبح صفة الرغبة باردة فى ذات الشئ المرغوب،قال العلامة الشيخ أبو العباس أحمد زروق ـ رحمه الله تعالى ـ : الزهد فى الشيء : برودته على القلب، حتى لا يعتبر فى وجوده ولا فى عدمه[١]وبطبيعة الحال يكون التأثر فى القلب، أما الذهب فهو الذهب لا يتغير، والمال هو المال لا يتأثر، والزهد فى التصوف لا يعنى هجر الدنيا بالمرة كما يفهم البعض، لا بل هو على حد قول الشيخ أبو محمد عبد القادر، لما سئل عن الزهد فى الدنيا: أخرجها من قلبك، واجعلها فى يدك، فإنها لا تضر[٢]وما زاد عن هذا الحد من آراء المتكلفين أو المتعسفين فهو لا مكان له فى مدرسة التصوف .

وختاماً فإنا نصل عبر هذا البحث إلى نتائج مهمة وتوصيات ضرورية، أما النتائج فهى :

١ ـ أن المتتبع لحياة هؤلاء الزهاد المنظومين فى عقد جامعة رسول الله ﷺ الزهدية النفيس، يدرك لأول وهلة مدى عنايتهم بالترقى الروحى ، والأخذ بأسبابه عناية طاولوا بها أعنة القلوب، وذلك لتداركهم أن الحياة الروحية المنشودة هى أصل إنسانية الإنسان، وأن الإنسان بدونها لا شئ بل هو أضل من الأنعام، لا يتمنى إلا إرضاء شهواته، ولا يعيش إلا لنزواته .

---

(١)العلامة الشيخ أبو العباس أحمد بن محمد زروق، قواعد التصوف، بتعليق : محمد زهرى النجار، ص ٨٨، المكتبة الأزهرية، سنة ١٤١٩هـ ـ سنة ١٩٩٨م.

(٢)المصدر السابق، ص ٨٨.

٢ ـ أن هؤلاء الأوائل عبروا بما تكونت به شخصيتهم، وتربت عليهم بصيرتهم عن الشخصية المسلمة فى أسمى رخائها الإيمانى، وفى أرقى تأثرها الروحى، كما أنهم ترجموا عن معنى التربية الروحية للسالكين، وذلك عين الأخذ بأيدى التائهين فى أوحال النفس وأهوائها، والمتخبطين فى ضروب الجهالة بألوانها، بما اتسم به منهجهم من إيقاظ لما سكن فى القلوب من معانى الفطرة المستقيمة، وتحريك لمجامر الأفئدة الخامدة، فتتوهج فيها حرارة القرب من الله تعالى، فتبدو معانى الروحية فى لمعان القلوب وصفائها، وإدراكها لمعانى الإيمان بالله تعالى .

٣ ـ بيان صدق التصوف الإسلامى الحق، بعيداً عن الخرافة والبدعة، وقيام منهجه على الكتاب والسنة، وأنه جانب روحى عاطفى من جوانب الحياة الإيمانية بعيد كل البعد عن الأوهام، رفيع فى مطالبه عن الخيال، ينشد سمو الفكر ونقاء الروح، وصفاء النفس، وقد غرف الزهاد الأوائل من السالكين لمنهج التصوف، والذين ذكرنا بعضاً منهم فى بحثنا من معين الصدق لإثبات صحة هذا القول .

٤ ـ أن الحياة الروحية فى ظل الزهد باتت ضرورة، وحاجة فطرية لا يستطيع الإنسان بمعناه الحقيقى أن يتجرد منها فى ظل تصاعد دخان المادية بظلامه الدامس، والذى تريد به تلك المادية أن تطمس بريق الجمال الروحى لتعيش البشرية حياة جرداء من كل ما يوافق القلب، ويرهف الحس، ويأخذ بالمشاعر صوب رقائق الإيمان وحقائق الإحسان .

٥ ـ سلامة الفكر الصوفى الأصيل من الانحراف فى مهاوى البعد عن

الشريعة، وإن وجدت مخالفة من بعض الصوفية حالياً، فلا يعنى ذلك مخالفة التصوف الحق لدعائم الإسلام، فالخلل فى ذلك الصوفى لا فى عين التصوف ... فافهم .

أما التوصيات التى رأيتها فأهمها :

١ ـ ضرورة إثراء الجانب العاطفى الروحى فى قلوب الناس من قِبل الدعاة والعلماء، لا سيما فى عصرنا الحديث الذى اكتظ بثورات مادية متتابعة، وتقدم تقنى هائل، فمن الخطر الفادح أن يطغى جانب المادة على جانب الروح، ففى ذلك تدمير لمطالب الفطرة، وخسف لمعانى النزاهة، وخراب لميزات الإنسان على أقرانه من المخلوقين، سواء كانت جمادات أو حيوانات .

٢ ـ تخصيص جبهة من العلماء المتخصصين لتقريب الفكر المتضارب على ساحة الأمة المسلمة، بالحكمة والموعظة الحسنة، دون مهاجمة أو إبداء عداء، عاملة على تنقية الأفكار من الدخيل وجمعها على فكر واحد يلتقى على الكتاب والسنة وإن تعددت الطرق شريطة سلامتها مما يعطل نصًا صحيحًا، أو يغير تشريعاً صريحاً بإضافة أو نقص .

المهم أن الكل يلتقى تحت سماء الكتاب والسنة .

٣ ـ الفهم بعمق لمطالب التصوف الحق السامية، وخصوصًا دراية انتساب سائر المدارس الزهدية إليه على عين الكتاب والسنة وأفعال الصحابة والتابعين، ولا مجال للنزاع حول التصوف ولا محل له، فالأمة واحدة فى عقيدتها وفى انتمائها وفى عبادتها، وعليها أن تتحد لتقويم المنحرف، وإقرار المستقيم دون عصبية عمياء أو حماقة هوجاء، وكفى تفريقًا دمر وحدة أمتنا،

فلا داعى لاستفراغ أوقاتنا وإجهاد عقولنا فى أمور فرعية كل راح يجتهد فيها وكل مصيب، وكل يثاب على قدر نيته، وعلينا تطويع طاقات عقولنا، وتوجيه فهمنا لصناعةِ غدٍ مشرق يصلح حالنا، ولا يجعل منا مطمعًا لغيرنا .

وأصلى على سيدنا محمد النبى الكريم، صاحب الخلق القويم الذى لا تعرف القلوب سبيلاً للحياة إلا بحبه، ولا تدرك العقول هداية إلا بقربه، وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين، وسائر التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

أسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه، وينير لنا الطريق إلى الجنة يوم اللقاء، وأن يُرضى عنا حبيبه وصفيه من خلقه نور القلوب، وهداية البصائر، خير نور أشرقت به الأكوان، قائد ركب الإنسانية إلى فجر منير يغمر أحوالها بالسعادة الأبدية فى الدنيا والآخرة .

obeikandl.com

obeikandl.com

الفهارس

١ ـ فهرس المصادر والمراجع

٢ ـ فهرس الموضوعات

obeikandl.com

obeikandl.com

فهرس المراجع والمصادر

١- القرآن الكريم .

٢- الآداب الشرعية والمنح المرعية ـ ابن مفلح ـ القاهرة ـ مؤسسة قرطبة ـ سنة ١٩٨٧م .

٣- أبو بكر الصديق، أول الخلفاء الراشدين ـ محمد رضا ـ طبعة دار الكتب العلمية ـ سنة ١٤١٥هـ ـ سنة ١٩٩٥م .

٤- الإحسان فى صحيح ابن حبان ـ علاء الدين الفارسى ـ دار الرسالة ، طبعة أولى ـ سنة ١٤١٥هـ ـ سنة ١٩٩١م.

٥- إحياء علوم الدين ـ الإمام أبو حامد الغزالى ـ طبعة دار الشعب.

٦- أدب الدنيا والدين ـ الإمام الماوردى ـ طبعة دار الريان ـ طبعة أولى ـ سنة ١٤٠١هـ .

٧- أشهر مشاهير الإسلام فى الحرب والسياسة ـ رفيق العظم ـ طبعة دار الرائد العربى ـ بيروت ـ سنة ١٤٠٣هـ ـ سنة ١٩٨٣م .

٨- الإصابة فى تمييز الصحابة ـ الإمام أحمد بن حجر العسقلانى ـ طبعة دار الكتب العلمية ـ سنة ١٤١٥هـ سنة ١٩٩٥م .

٩- أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن ـ الشيخ محمد الشنقيطى ـ طبعة ابن تيمية ـ طبعة ثانية ـ سنة ١٤٠٨هـ .

١٠- إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ـ الإمام ابن القيم ـ طبعة دار المعرفة ـ بيروت .